موسیٰ بن نصیر



موسى بن نصير

بطولات من بلاد العرب

فاتح المغرب

موسى بن نصير



جروس د

طرابلس - لبـ

الطبعة الأولى

١٩٩٢



جروس برس

طرابلس - لبنان

١ - موسى بنُ نصير قائد الأسطول العربي

عـاد نصـيرٌ إلى خيمتِـه، فـوجـد ابنَـهُ مـوسى، وعمرُهُ سبعُ سنواتٍ، حافي القـدَمَين، حـاسرَ الرأسِ، يَتَمنْطَق بسيفٍ خشبيّ صنعَه بنفسِه.

- أينَ كنتَ، يا أبي؟

- عند معـاوية.

- كيفَ ذَهَبْتَ إليْـهِ، وقـد تمنَّعْتَ من الخـروج معه لمحاربة علي؟

- ألَم تعلمْ، يا بنيّ، أنّه استَدْعاني إلَيْه؟

- أما زلتَ قائداً في جيوشِه؟

- إعْلَمْ، يـا مـوسى أنَّ الأمـيَر داهيـةٌ، عـالمٌ بطبائعِ النّاس، يعذُرُ، إذا بدا العذرُ مقبولاً.

ـ ماذا قلتَ له؟

ـ هذا شأنٌ بَيْني وبَيْنَه.

ـ هل أَنتَ مؤمنٌ بحقِّه في الخِلافة؟

ـ لو لمْ أَكنْ مؤمناً لما وقفْتُ بجانبِهِ، لأنِّي لم، أعتدْ أَنْ أُجرِّد سيفي دفاعاً عن باطل ودعماً لزائل. وعلى المرءِ قبلَ المباشرةِ بأيِّ عمل أَن يقول بينه وبين نفسه: «أَهذا العملُ يُرضي اللّٰه؟»

ـ ومتى ستأْخُذُني معك إليه؟

ـ وماذا تريدُ منه؟

ـ أَودُّ أَنْ أَكونَ جندياً في جيشه.

ـ الصِّغارُ لا يحاربون.

ـ خذْ سيفَك يا نصير لأُريَك أَنِّي لستُ صغيراً.

وامتشق[1] موسى سيفه،وراح يسدِّدُ لأَبيه الضربة تلو الأُخرى، وهذا ذاهلٌ لا يَدْري كيفَ يدافعُ عن نفسِه. امتلأَ قلبُه فرحاً، وقال:

ـ ستكونُ، يا موسى، مَفخرة هذه الأُمّة.

ـ يا أبي، أَتَصْدُقُني القَوْل؟

ـ كيف لا؟

ـ لماذا يتحارب النَّاس ويقتَتِلُوْن؟

ـ كبرياءُ البشر وعجرفتُهم[٢] تمنعان من يدَّعُوْن أنَّهم قادةُ الشعوبِ أن يسوُّوا خلافاتِهم بالحوارِ والحُسْنَى.

ـ لعبة الحرب، لعبةٌ خطرة.

ـ هذا ما أرى، وفيها مُعْتدٍ ومُعْتَدى عليه.

ـ والاثنان يدّعِيانِ أنَّهما يَنْصُران الحقَّ ويدافعان عن الحريّة.

ـ هل أَخبرتُك، يا أَبي،أَنّي تغلَّبْتُ على الأعداءِ.

ـ أين؟

ـ في الحيّ.

ـ وهل في الحيِّ أعداء؟

وضحك موسى ضحكة بريئةَ، وقال:

ـ استنبطنا لعبةَ الحربِ ونمارسها.

ـ لعبـة الحـرب قـديمـة... وُلِـدَتْ منـذُ وَلِـدَ الإنسان.

لم يكفَّ مـوسى عن لعبة الحـرب يومـاً،بل ظـلَّ يضطلع بها ويمارُسها طيلةَ حياته.

أَخذ معاوِيَـة الْبَيْعَةَ في الكُـوْفة، بعـدَ التَّحكيم وأَدرك الحسَنُ بنُ علِيّ أَنْ لا قِبَـلَ لَـهُ[٣] بمقـاوَمَتـه. فتنازل عن الخلافـةِ حَقْناً لـدِمَاءِ العـرب، وارْتَحَل من ثمَّ إلى المدينة حيثُ لَزِمَ بَيْتَه.

انصرف معـاوية لسـاعتِـه إلى تـوطيـدِ دعـائم، دولتِـه وتوسيـعِ رُقعَتِها واستكمـالِ الفتـوحِ. وأَدْرَك بثاقبِ نظرِهِ، أَنْ لا غنى للعرب عَنِ البحرِ، فرأى أنَّ الـواجبَ يـدعـوه إلى امْتِـلَاكِ أسـطولٍ حـربيٍّ ضخم يستطيع بواسطتـه غَزْوَ البلدانِ البعيـدة وفَتْحِ الثُّغُـورِ الآهِلَة وحمـايتهـا مِنْ هَجـمات الـرّوم. فكيف العمـلُ والعربُ يأْنَفُوْن البحرَ، ويبتعـدونَ عنه إِذْ لَمْ يسبقْ لَهُم

أَنْ خاضوا عُبَابَهُ؟ وهـل مِنْ عقبةٍ يُمْكِنُهَـا أنْ تُثَبِّطُ من همَّةِ معاويةَ؟

ضعفـاءُ النفوسِ وحـدهم يخافـونَ ويعـترفـونَ بالعجز ويَستَسْلِمُوْن للخذلان.

وقـال بينه وبـين نفسه: سُكّـانُ سَوَاحِـل الشَّام نشيـطون خبيـرُوْنَ بشؤونِ البحـر وبِنـاءِ السّفنِ ومـا يتَّصل بها.

وأوفد رسلاً إلى المرافىء والثُّغورِ الشّاميَّة بعد أَن أَوْصـاهَم قـائِـلا: «لا تعـودوا إلى دمشق، إلّا وقـد اسْتَحَصْلتُم على عهدٍ من بناةِ السّفنِ بتجهيز أسـطول كاملِ العدَّةِ والعدد. فكما امتلَكنا الأَرْضَ نستطيعُ أن نسيطرَ على البحر. الروم لا يتـوقّفون عن شنّ الغـارة تِلْوَ الغـارةِ على ثغـوْرِنا، وأودُّ أَنْ أمنعهم منعـاً قاطعـاً عن الاقترابِ من السّاحل.

أَمِنْ وَسِيلَةٍ أُخرى؟

كيفَ نتمكَّنُ من ذلـك إنْ لمْ نَمْتَـلِكْ أسـطولاً حربيّاً مُؤَلَّفاً من بوارج خفيفـةِ الحركـةِ حسنةِ التَّجهيـز

رِجالُها مِنْ ذَوي الاختصاص والجرأة.

أيْن نجدُ كلَّ هذا إنْ لَمْ يكن عندَ أهل الشام؟

سأُوفِّر لرسلي، الأَمْوَالَ اللازِمَةَ ـ وغداً سيتّجهون إلى لبنانَ للقيامِ بالمُهِمَّةِ الّتي أَوكلتُها إلَيْهم.

إنكبَّ لبنانيو المدنِ السَّاحِليَّةِ على العمل بجَدٍّ ونشاطٍ لا يعرفون الكَلَلَ. وتحوَّل السَّاحِل إلى خليّة ناشطةٍ فكان المارُّ يشاهد أولئك العمّال حُفاةً نصْفَ عُراةٍ، يقُوْمُونَ بأعمالِهِم المعتادةِ وهم يُنْشِدَوْنَ نَشيدَ البحّارة.

انقضىَ أشهرٌ أَربعةٌ والخليّةُ ناشطة ليلاً نهاراً، لا تَهْدأُ ولا يقرُّ لها قرار. الأعمالُ المختلفةُ قائمةٌ على قَدَم وساق.

أَشْجارُ الجبال اسْتُعْمِلَتْ على اختلافِها، وحُوِّلَتْ بأيدي النّجارين إلى أَلواح جُمِعَتْ فَتَحَوَّلَتْ بسحرِ ساحر إلى بوارج متينةٍ أنزلَها البحَّارةُ إلى الماءِ وهم يتصايحون «يلّا يا شباب... هيلا هوب... هيلا».

وما أن بلغ معاوية خبرَ ذلك حتّى صاحَ :

ـ الحمد للّه، أَصْبَحَ الآن بإمكانِنَا القضاءُ على الرّوم.

ـ سيَحْسبُ الّذين يعنُّ لهم أنْ يقفوا في وجهنا ألف حساب لسَطوتِنا قبلَ أنْ يقدِمُوْا.

ـ سأُدَشِّنُ بنفسي هذا الأسطول.

ـ ماذا؟ ومحاذيرُ البحر؟

ـ العربُ يخافون البحر ولا يجرُؤوْنَ على خَوْضِ عُبابه، وواجبُ القائد أَنْ يكونَ في المقدمة لا في المؤخِّرة.

ـ تُملي علي أبسطُ واجباتي أن أُبْحِرَ وزوجتي على مَتْنِ إحدى هذه البواخرِ لنقوم برحلة قصيرة كي يتجرَّأَ الآخرونَ على رُكوبِ أَهْوالِ البحر في سبيل الوطن.

ـ العربُ، يا مولاي، لمْ يحاربوا قَطْ فوق الماء، وهم لا يُتْقِنُوْن سوى حرب السُّهول.

ـ فليتمرَّسوا بها. سنَعْمَدُ فوراً إلى تعيين رؤساء الوحدات. ولن نتواني في الاستعانة بسكان لبنان من أجلِ تدريب العرب وتشجيعِهِم على قيادةِ البوارج الحربيّة.

ـ وهلْ نستطيع الاعتماد على هؤُلاء القوم؟

ـ نعم فإنّهم نبلاء، إذا وعدوا وفوا، وإذا أَقدَمُوْا فازوا.

ـ أيْنَ وَمَتى، يا مولاي ترغبون في تدشين الأسطول؟

ـ سيكون ذلك في طرابلس. وأمري إليكم أنْ تتجمّع القطع البحريَّة النّاجزة(٤) في مينائها.

ـ ليكنْ ما تشاؤون.

بعد سنوات قليلة، امتلك معاوية أسطولاً جبّاراً حاصر به القسطنطينية، وسار برجاله لفتح البلدان والجزر البعيدة.

وبلغ موسى بن نصير عهد الشباب، فركب

البحر، وكان لـه من جرأته ما مكَّنـه أن يصبح خبيـراً بشؤونه، ثمّ تولّى قيادة إحدى السّفن وراح يتنقّل على متنها بين الثغور المعروفـة على طول السّاحـل الشَّامي، ويتمـرّس بأعـمال الحرب. ولم يَـطُلِ الأَمرُ حتّى قـوي ساعـدُه، وعـلا كعبُهُ،وطـارَتْ لهُ شهـرة بلغت أسماع الخليفةِ الأُمَويّ، فأرسل في طلبِه.

لبّى موسى الدّعوةَ سريعاً.

ـ السلامُ على مولاي الخليفة.

ـ أهذا أنتَ يا موسى؟

ـ خادمُ مولاي.

ـ أَتعلم، أن نصيـراً والـدَك، كـان من خيـرةِ قادتِنا، وكنّا نمحَضهُ كاملَ ثقتِنا

ـ نعم، يا مولاي.

ـ أرى أَنّ صِفاته قد تجسَّمتْ فيك وبـدَتْ على سيماء وجهك. أَتودُّ أَنْ تصبح من أصفيائِنا.

ـ إنّه شرف لي.

ـ ما رأيُك إذا ولَّيْناكَ البحر، يا موسى؟

ـ الأَمرُ لكم، يا مولاي.

ـ إذاً أَنت منذُ الآن قائدُ أُسطولنا إلى النصر.

ـ إنَّ هذا ما أَشتاقُه وأَحْلُمُ بهِ منذُ نعومةِ أَظفاري، سأخوضُ غمار الحروب نصرةً للعرب ورِفْعَةً لمولاي الخليفة.

اخترْ رجالَك، وتولَّ سُفُنَكَ، وتوجّه لِتَوِّك إلى جزيرة قبرصَ.

ـ أمراً وطاعة.

ـ وفَّقَكَ الله، وساعَدَكَ على قهرِ أَعدائِنا.

ـ ثِقْ أَيّها الخليفة، إنّي لن أُخيّب لكم ظناً، فلن أَعودَ إلى الشّام إلاّ وقد تمَّتِ السّيطرة على الجزيرة.

***

خرج موسى من لدن الخليفة الأمويّ، وهو يكاد يطيرُ مِنَ الفرح، واتَّجه إلى طرابلسَ، مع نُخْبةٍ مِنَ الشبُّانِ الأَقوياء. ومنها أَبْحَر إلى قبرص، وما أن

اقْتَـرَبَ مِنْها حتَّى واجهَـهُ الأسطولُ القـبرصي. فأطلق موسى صَيْحةَ الحربِ، وأصدَرَ أَمـرَهُ بالهُجُـوم. اختلط الأسطولانِ، وقفزَ جنـودُ العـربِ إلى سُفُنِ القبارصـةِ، فتـلاحَمُـوْا وقـاتلوا قتـالاً شـديـداً. ولاحق الأسـطولُ العـربي السّفنَ القبرصّيـةَ حتَّى ثغورِ الجـزيرة، فتَمَكَّنوا مِنْها، ونَزَلُوْا إلى البرِّ حيثُ دارت وقائع طاحنةٌ استبسل فيها الفريقانِ، وسيطَر العرب في النِّهايـة سيطرة كـاملةً على الجزيرة. وما ان استقرَّ بِهم المقامُ، وهدأَتِ الحالُ، وسـاد السِلم حتّى بدأَ مـوسى ببناءِ الأَبْـراج والحصونِ والقصورِ، وانصرَفَ إلى إدارَةِ شؤونِها وتنظيمِ أَحوالَهـا بحكمةِ القائدِ وَحُنْكة(٥) السِّياسي المقتدر.

طـارت البشائـرُ إلى معـاويـةَ حـاملةً إِلَيْـه خـبر انتصارِ قائده موسى ودخوله إلى قبـرصَ التي أصبحت في عدادِ البلدان الخاضعة للعرب. وهكذا ظهر ذَلـك القائد المغوار على مسرحِ الأَحداث.

٢ ـ موسى يحارب الأمويين

لمْ يَمِلْ موسى إلى الأُمَوِيِّينَ بعـدَ وفاةِ معـاويَة،ولمْ يخاصِمْهم في شيء، بل لَزِم الهدوءَ. ولما مات معـاويةُ الثَّاني بنُ يزيـد تفكّكَ عـربُ الشّام،وكـانوا فيـما مضى عصب الـدَّولة وقوّتها. ومـالَ فريق منهم إلى خـالدَ بن يزيد بنِ معاويةَ فيما جنحَ الفريقُ الآخرُ إلى مَـرْوانَ بنِ الحكم لِحُنْكَتِهِ وحكمته.

احتـدم النزاعُ بَـيْنَ الفريقَـيْن،واشتدَّ فـاتَّحـدت كلمـةُ اليمنيَّة مِنْ كلب وبـايَعَتْ القَيسيَّة عبـدالله بنَ الـزُبَيْر بـزعامَـةِ الضحّاك بنِ قيس الفهـري. وكـانت صِلاتٌ مِنَ الودِّ تربُط بينه وبيْنَ موسى.

ـ ماذا ترى، يا موسى؟

ـ أرى يا ضحّاك أن تستعِدَّ للحرب.

ـ وفي أيَّةِ جهة تكونُ أَنتَ مع رجالك؟

ـ لن أُوالي بني أُمَيَّـة، بعدَ الّـذي قالـه معاويـة الثاني في النّاس.

ـ هاتِ ما قاله.

ـ إنَّـه قال: «يـا أيها النّـاس! إنّ جدّي معاوية نـازعَ الأمر أَهلَهُ، وَمَنْ هـو أحقُّ بهِ منْـهُ لقرابتِـه وهوَ علي بنُ أبي طالب، وركِبَ بِكم ما تعلَمُون حتَّى أَتَتْـهُ منيَّتُه، فصار في قبرِهِ رهيناً بـذنوبـه وأَسيراً بخـطاياه. ثمّ قلَّد أَبي الأَمر فكان غير أهلٍ لذلك، وركب هـواهُ وأخلفه الأَملُ وقصر عنه الأَجَلُ، وصار في قبرِهِ رهيناً بذنوبه وأسيراً..

ـ وما أنت فاعلٌ إذاً؟

ـ أنا سندُكم حتَّى ننتصر أو نُقْتَل.

ـ وما الرأْيُ الآن؟

ـ فلنجتمع،ولنجعلِ الأَمر شوْرى فيما بيننا.

اجتمع الضحّاك بخـيرة رجالِـه،وقرَّ الـرأيُ على أَن يتـوجَّهوا إلى مـرجِ راهط، بـالقُـربِ من دمشق.

علم مروانُ بالأمرِ،فسَيَّرَ رجالَهُ إلى مرج راهط حيثُ تنازلا وتصادَمَتِ الأَبْطال حتّى بَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ واحتدمت معركةٌ قاسية تشيب لهولها شعورُ الولدانِ، فأبْلى فيها موسى بلاءً حسناً، فكان يَلْقى الفارسَ على صهوةِ جوادِهِ،ويُسَدِّدُ إليه الضربةَ إنْ أصابتْ مِنه العُنُقَ اجتثَّتِ الرأس، وإنْ وقعَتْ في الجذع قطعته اثنين. وأظهر الضحّاك من ضروب البطولةِ ما جعل كفَّةَ النَّصرِ تميل إلى الزبير عدوِّ الأمويِّينَ الأَلَدّ.

كان موسى يصيحُ صيحاتِ الانتصارِ،فترتعِدُ لها فرائصُ الأَعْداءِ،فيرتدُّونَ عن منازلتِهِ. وصادف أنَّ عدة فرسان عرفوا الضحَّاكَ، وكان قد تقدّم بين صفوفِ مَنْ يحاربُ، فأحاطوا به وهاجمُوْه مِنْ كلِّ جِهَةٍ، وهو يدافعُ عن نفسه بجرأةٍ لا مثيل لها. وبينما هو كذلك رآه موسى،فتوجَّه نحوه ليساعدَه على أعدائه، وقبلَ أَنْ يتمكَّن من ذلك أَصابتِ الضحَّاكَ ضربةٌ غادرةٌ أَردَتْه قتيلاً. دبّت الفوضى في صفوفِ جيشِهِ، فارتدَّ موسى لساعتهِ يجمع شملَهُ ويتسلَّم قيادتَهُ، إلَّا أنَّه تخاذلَ وراح يتراجعُ،فاستَقرَّ النَّصرُ

بجانِبِ مروانَ. وعندئذ لم يَرَ بدّاً من الانسحاب، ولكن أين المفر؟ وبعد فترة من التفكير رأى أَنْ يلجأ إلى عبد العزيز ولد مروان. فهل يجيره؟[٦]

هذا هو السؤال المقلق الذي ارتسمَ أَمام ناظرَيه وأَقْلَقَ بالَه وهو في طريقه إلى قصرِ عبد العزيز في الشّام.

ـ السَّلامُ على عبد العزيز بنِ مروان. جِئْتُكَ مستجيراً.

ـ مِمَّن؟

ـ من أبيك الخليفة. هلاَّ أَجَرْتَني.

ـ هل سمعت يوماً، أنَّ عربيّاً استَنْكَفَ عن إغاثةِ ملهُوف؟

إجلِسْ، يا موسى، لننظرَ في أَمرِكَ. وستَبْقى ضيفنا حتَّى نأْذَنَ لكَ بالانصراف عنّا.

ـ كيف أشكرُكَ، يا مَرْوَان؟

ـ من ترى يريد بك شرّاً؟

ـ أبوكَ وجندُه.

ـ اطمئنَّ إليْنا وهَدِّئْ من روعَك. لقد رأيناكَ في المعركة، ونعرُفُ أنكَ عدوُّ الأمويّينَ وناصرُ أعدائهم ولكن ما يَشْفَعُ بكَ جرأتُك.

ـ أترى الخليفةَ يغضُّ الطَّرْفَ عن عدائي له وللأمويِّين، وينسى الإساءاتِ الّتي أَلْحَقْتُها برجالِهِ؟

ـ ألا تثقُ بِمَنْ حماك؟

ـ كيف لا، لو لم أثق بِهِ لما كنت قد أَتَيْتُ إليه.

ـ أنا خارج لتوّي، إلى الخليفةِ، ولن أدعَهُ حتّى أحصَلَ مِنْهُ على عفوِهِ.

ـ بارَكَ اللّهُ فيك.

ـ إنهضْ واسترح.

ـ لن أستريحَ قبلَ أن أَطمئنَّ إلى عفوِ الخليفة.

وإذ هما كذلك دخل عليهما أحدُ حرّاسِ القَصْرِ وقال:

ـ في الباب، يا مولاي، رسول.

ـ من أرسله؟

ـ مولانا الخليفة.

ـ أَدْخِلْه.

وبعد قليلٍ تقـدَّم جنديٌّ قـاسي القسمات حـاد النَظراتِ، لا تزال غبارُ المعركةِ عالِقَةً بثيابه.

ـ مولاي.

ـ ما الّذي تريدُ؟

ـ إنَّ الخليفــة، أيَّـد الله عــزَّه، أَرسَلَني إِلَيْـكَ لأطلبَ مِنْكَ أَنْ تذهبَ إِلَيْـهِ،وتصطحِبَ مَعَـكَ موسى بنَ نصير.

ـ وأين هوَ؟

ـ بعـدَ أَنْ انتهتِ المعركةُ هرَبَ، فـلاحَقَهُ بعضُ رجالنا وأدركُوْه وهوَ يدخُلُ دارَك.

ـ إِذْهَبْ، وقلْ لمولانا الخليفةِ أَنِّي آتٍ إِلَيْه.

ولم يـطلِ الوقت حتَّى دخـل عبدُ العـزيـز عـلى والدِه مروان.

ـ هل أَجَرْتَ موسى. يا بنيّ.

ـ نعم، يا مولاي.

ـ وأين هو الآن.

ـ في قصري.

ـ لماذا لم تأتِ به إلَيْنا؟

ـ اتّقاءً لغضبك.

ـ أليسَ هو مَنْ فرَّ إليك،ولاذَ بك وطلبَ المعونَةَ منك؟

ـ بلى، يا موْلاي.

ـ وهــلْ سمِعْتَ أنَّ عــربيــاً غَــدَرَ بضيفٍ أوْ بمستَجير؟

ـ كلّا، أبداً...

ـ والله لــو لم تكن عبـد العــزيـز ابني لأمــرت بجَلْدك وسَجْنـك لقلّة ثقتك بـالخليفة. قمِ السَّـاعَـةَ وارسلْ في طلبه إلينا. ألَا يريدُ أنْ يقلعَ عن كرهـه لنا

ومعاداتِنا ومحازَبَة(٧) أعدائنا؟

ـ لمْ أباحثْهُ بهذا الشأنِ، ولكن إنْ عفوتَ عَنْهُ يا مـولاي، وشملتَهُ برِضاكَ، فـلا شكَّ أنَّـه سيبدّل رأيـه بنا.

ـ وإن لم يفعل فماذا ترى؟

ـ ما دمتَ، يا مـولاي، تسألُني رأْيي فسـأقولـهُ لكَ بكلِّ جرأةٍ وأَمانةٍ ودُوْنَ مواربةٍ أو دَوَرَان. أرى أنْ نتركه حرّاً فلا نسيء إلَيْه. يجبُ أن لا يؤخذَ إنسـانٌ أو يعاقبَ أو يعذَّب بسببِ مبدإ أو دينٍ يَعْتَنِقُهُ، فالإنسان حـرٌّ في أَنْ يتحزَّب لمن يشـاءُ،ويؤمِن بما يشـاءُ على أَنْ يكونَ أَميناً في انتمائه إلى وَطَنِه،كما أَنَّه حُرٌّ في معـاطاتـه مع ربِّه. فالدِّينُ يوفِّرُ لهُ المبادىءَ الأساسِيَّةَ التي تنـظِّم سُبُلَ هذه المعاطاة. والله وحدهُ، عزَّ وجـلَّ،يحقُّ لَهُ أَن يكافئَهُ عن الحسنـاتِ ويحاسِبَهُ عن السّيئات. فـالتشدُّدُ وإجبـارُ النَّاسِ على اعتنـاقِ المبـدإ أو المـذهبِ الَّـذي نؤمِنُ بـهِ تَعَدٍّ صـارخٌ على إنسـانيّـةِ الإنسـانِ،ونَقْضٌ لأبسطِ مَبَادِىءِ الحُريَّةِ والحقِّ والعَدْل.

ـ لكَ ما تشاءُ يا عبدَ العزيز.

ـ عنـدئِذٍ ذهبَ عَبْـدُ العزيـزِ،وجـاءَ بمـوسى إلى قصر والـده، فوضـع هذا سيفَـهُ عِنْدَ قَـدَمَي الخليفـة وَٱسْتَغْفَرَهُ عمَّا كان.

نشأتْ، منذُ ذلك اليَوم، صلَةٌ حَمِيْمَةٌ بين موسى وعبد العزيز، فأقلَعَ عن عـدائِهِ لـلأمويِّـين،وارتبط بهم بصلةٍ متينَـةٍ، وأَخْلَصَ لهُمُ الودَّ وبادَلُـوْهُ بـالمِثْلِ. فلمَّا استعادَ الخليفةُ مروانُ بنُ الحَكم مِصرَ من يَدِ خصُومِهِ ولّى عَلَيْهـا عبدَ العـزيز وعـيَّنَ موسى بنَ نصـير وزيـراً لابنِهِ ومشيراً. فقضى أعواماً عديدةً مُتَنَعِّماً بمنصبِهِ وفي نفسه رغباتٌ أَرْحَبُ مِنَ الفَضَـاءِ،وطموحٌ إلى أَبْعـد ما يمكن أَنْ يطمعَ بهِ إنسانٌ.

تولّى الخلافة إِثْرَ وفاةِ مروانَ بنِ الحكم ابنُهُ عبدُ الملكِ، فعَمَدَ إلى تعيين أَخيه بشر بنِ مروانَ أميراً على الكوفة والبصرة. وكان هذا يومئذ حَـدَثًا طـريَّ العُوْدِ تَنْقُصُهُ الخِبْرة. فرأى أَنْ يسندَهُ برجلٍ مخلص خلوق يمدُّ له يدَ العونِ في السَّاعاتِ العصيبةِ، وهكـذا أَرسل لَـهُ

موسى بنَ نصير كي يكونَ المسؤولَ الأوَّلَ عن ديوان العراق.

ـ أهلاً بك، يا موسى، علَّنا نَجِدُ بك خيرَ مُرْشدٍ وأَفْضَلَ نصير.

ـ أرجو أَنْ أكونَ عندَ حُسْنِ ظَنِّ مولاي.

ـ ما رأيُك أَنْ تتسلَّم خاتَمَ الإمارَةِ، وتكونَ على الخَراج(٨)؟

ـ الأمرُ لكَ، يا مولاي.

عاشَ الرَّجلانِ ردحاً من الزَّمن، في وئام، إلاَّ أنَّ المنيَّة عاجلتْ بشراً. وبعدَ ذلِكَ تواترتِ الأخْبارُ عن تردِّي الحال في العراق، وأَنَّ فساداً قد ظهر في إدارةِ أمْوالِ الخَرَاج، وكان من الطبيعي أَنْ يساءَ الظنُّ بموسى. فأَرْسَلَ الخليفةُ في طلبِ الحجَّاج بنِ يوسفَ الثقفي المعروفِ بقِسْوَتِهِ وإرادَتِهِ الصَّلْبَةِ في تقويم كلِّ اعوجاج. فما إنْ مَثُل بَينَ يدَيْهِ حتَّى صاحَ به:

ـ يا حجَّاج.

ـ مولاي.

ـ قد جَعَلْنَاكَ على العراق.

ـ وأنا لها.

ـ لا يفوتنَّكَ أمرُ موسى وأَنْصاره.

ـ سنَسْعَى إلى تصْحيحِ الأَوْضاع بما تَسْتَلْزِمُهُ مِنْ شدّة.

ـ عليكَ إذاً بموسى، فهو الَّذي زرع الفسادَ هناك وَٱمْتَدَّتْ يدُه إلى بيتِ مال المسلمين.

ـ سنقْطَعُ أَيْدي الْمُخْتَلِسِينَ، ونَقْضِي علَى دابر الفسادِ أَيْنَما كان، ونتدبَّرُ أَمْر كلِّ من سوَّلت له النَّفس أَنْ يخرج على إرادة مولانا.

ـ بُورِكَ فيك، يا حجّاج.

وأتى الحجّاج إلى العراق.

ما إنْ عَلِمَ موسى بمجري الأَحداثِ حتَّى جَمَعَ أَنْصَارَهُ وتشاورَ مَعَهُم في ما يجب أَنْ يَكون. فنصَحه

الجميعُ بوجوبِ الانسحابِ إلى بلادٍ أكثرَ اطمئْناناً وأَوْفَرَ أَماناً.

قَبلَ نُصْحَهُم دونَ تردُّدٍ، وقال:

ـ أودُّ قَبْلَ ترككُمْ أَنْ أؤكِّد لكُم أنِّي بريءٌ ممّا اتُّهمت به وممّا سوف يُلْصَقُ بي من جرائم جديدة. فأنا رجل مستقيم، أخاف الله في عقابه، أمين للخليفة ولكم ولنفسي كما أنا أمين لربِّي.

ـ اذهبْ محفوظاً بعناية الله، ما دمتَ مؤمناً به مستسلماً لأَحكامِه، وثقْ أَنَّ لا خفيّ إلا ويظهر.

ـ أَسْتَودِعُكم الله.

ـ وإلى أَيْنَ أنتَ ذاهبٌ الآن؟

ـ إلى مِصْرَ.

ـ وماذا هُناك؟

ـ لي فيها عبدُ العزيز.

ـ وما باستطاعتِه أَنْ يفعل وهو ابنُ الخليفة؟

ـ سبق له أنْ أدْخَلني في رضى مروان.

ـ هـل أنتَ واثق مِن أنّه يقبَـل أن يجيرك ضـد عبد الملك؟

ـ هذا ما سنراه.

وصل موسى إلى مصر، ومـا أن عَلِم عبدُ العزيز بمجيئه حتّى أوصى القادَة به خيراً، وأَمـر مَنْ على بـاب قصره بإدخاله فورَ وصوله.

ولم يَطُلِ الأمر حتّى مَثُـلَ موسى بـين يدي عبـد العزيز.

ـ أهـلاً بك، يـا موسى، أنـا واثق من أمانتـك وإخلاصِك، فلا بأس عليك.

ـ هذا ما كنتُ أرجوه.

ـ ما بالك وَجِل[٩]؟

ـ أنـا لا أطمئِنُّ إلاّ في حِماك، يـا مولاي. وأودُّ لو أتمكَّنُ أنْ أقضي العمرَ في خدمتك.

ـ والآن، اصْدُقْني الخبر، هل أسأتَ التَّصرّفَ ومددتَ اليَدَ إلى بيتِ المال؟

ـ أُقسم لك. . .

ـ لا حاجة بك إلى القسم، فانتَ إنسان تقيّ ورع، وطباعُك تأبى عليك ارتكاب الموبقات[١٠] وتسمو بك عن الدّنايا. ولكن كيف ساق إليك الخليفة تلك الاتّهامات؟

ـ قد يكون بشرٌ ارتكب خطأً طفيفاً، فقام بعض منافسي بحملة مغرضة، وسعوا بي[١١] لدى الخليفة.

ـ هذا أقرب إلى الصَّواب ممّا يدّعون والآن أتدري ما يتوجَّبُ علينا؟

ـ كلاّ.

ـ لن أتركك تتخبّطُ في محنتِكَ هذه، سأَنصرُكَ على أَعدائك، إيماناً مني بإنسانيتك وبالخير الّذي تستطيع أَن تفعلَهُ.

ـ كيف أَشكرك يا مولاي!

ـ سنذهب إلى الشّام، وندخلُ على الخليفة ونقنعه ببراءتك.

ـ كما تشاء، يا مولاي.

ـ ستنزل قبل ذلك ضيفاً عَلَيْنا.

***

ومضت الأيّام، وإذا بعبد العزيز يدخل على الخليفة عبد الملك مصطحباً صديقه موسى.

ـ كيف تجرؤ، يا عبد العزيز، على الدّخول علينا مصطحباً معك عدوَّ اللّه موسى بن نصير الّذي أساءَ الأمانةَ وعبث بأموال الرعيَّة؟

ـ عفو مولاي. إنيِّ أَعرِفُ موسى منذ زمن بعيد وإنيِّ واثق به تمامَ الوثوق، فهو سليمُ الطويّة[١٢]، نظيف الكف.

ـ أينَ طارتِ الأموال إذاً؟

ـ قد يكونُ بشر، وهو حَدَث[١٣].

ـ إنَّ بشراً أَخي، لا يسيء الأمانة.

ـ أنا لم اتهمْ بشراً، يا مولاي، معـاذ اللّه، فقد يكـون قد أخـطأَ التَّصرُّف ببعض الأموال، ولم يُـطْلِعْ موسى على الأمر ليعمل عـلى تصحيحه. وبعـد وفاتـه نسب إلى عامل الخراج إساءة التصرّف.

ـ لماذا لم يأتِ إلينا ويبرىءُ ساحتَه إذاً؟

ـ يا مولاي، لقد خاف بـطش الحجّاج، فلجـأَ إليّ. ها هو الآن بين يديكَ، فإذا شئتَ استمَعْتَ إليه وأعطيته فرصةً للدّفاع عن نفسه.

ـ كـلّا، يا عبـد العزيـز، لولا حـرمتك لـدينـا لأمرنا بتوقيفه وإنزال أشدِّ العقاب به.

ـ ولكن، يـا مولاي، ليس من العـدل في شيء أَن تساقَ الاتّهامات ضدَّ رجل، ولا تعطى له فرصة كي . . .

ـ أنا عارف بجميع ما يريدُ أَنْ يقـول. عليه أَنْ يدفعَ لبيت المال مئَةَ ألف دينار.

ـ هذا مبلغٌ ضخم، فمن أَينَ يأَتي به؟

ـ ليتدبّر أمـره.

ـ وإذا تعذَّر أَن يجمَعَ المبلغَ بكاملِه؟

ـ عنـدئـذ يُساق إلى السجن، ويَلقى العقـاب الّذي يستحق.

ـ مولاي أَرجو العفوَ عنه.

ـ لا أَفهم، يـا عبد العـزيز، لمـاذا تتَّخِذُ جـانبه وتدافع عنه.

ـ إيماناً منيّ ببراءَته، يا مولاي، ودفاعي عنْه هو دفاع عن صديقٍ مخلص. لا يزال يؤدِّي لقضيتِنا أَجَلَّ الخدمات.

ـ أنسيت أَنه كان عدوّ بني أميَّة الألَدّ(١٤)؟

ـ جَلَّ مَنْ لا يُخطىءُ، يا مولاي.

ـ ما دام الأمر كذلك، فنحن نكتفي بأَنْ يدفعَ خمسين ألف دينار لبيت المال.

ـ إنه لا يَمْلِكُ هذا المبلغ.

ـ ليتدبّر الأمر.

ـ كما تشاءُ، يا مولاي.

٣ - موسى والي أفريقية

أقام موسى في مصر ، بحمايةِ عبدِ المِلك ، وذات مساء قال له عبد العزيز:

ـ أنا غير راضٍ عن حسّان بن النُّعمان ، ممثّل أخي في أفريقية .

ـ لماذا يا مولاي .

ـ إنَّهُ قابع في قصره . مستسلم للبذخ والطرب متوانٍ[١٥] عن القيام بواجباته ، مهمل لشؤون الرعيّة ، وقاعد عن الفتح[١٦] .

ـ ما باستطاعتنا أن نفعل والخليفةُ يَشْمُلُهُ برضاه .

ـ سأعمل على عزله .

ـ وكيف ذلك؟

ـ أتعود معي، يا موسى إلى الشَّام؟

ـ كيف لا؟

ـ إذاً استعدَّ للسفر قريباً. ما رأيك في أَنْ نعيِّنَكَ مكانَه.

ـ هـذا منتهى ما أَشتهي. كنتُ ومـا زلتُ منـذ نعومة أظفاري أحلم بأفريقية، ولكن حتىَّ الآن لم تُتَحْ لي فرصة زيارتها.

ـ مـا تستـطيـع أَنْ تحقّق وأنت شيـخ أَرْبَتْ[17] سنوه على السادسة والستِّين.

ـ مولاي، أَيقاسُ عمـرُ الإنسان بعـدد الأعوام الَّتي عاشها؟

ـ وبمَ إذاً؟

ـ أنت أَدرى بالَّذي أُود أَنْ أقول.

ـ أأنت واثق من نفسِك إلى هذا الحد؟

ـ كيف لا، وأنتَ عضدي[18]؟!

***

وصل عبدُ العزيز إلى الشّام برفقةِ موسى، بعـدَ مسيرةِ سبعة أيام، واستأذن بالدّخول على الخليفة.

ـ ما الذي أتى بكَ، يا عبد العزيز؟

ـ أرادَ موسى أنْ يَبِرَّ بوعدِه، وهـا قد أَتى ليـدفع الجزاء، بالرغم من براءته مِمّا نسب إلَيْه.

ـ ولماذا أَتيْتَ أَنتَ معه؟

ـ لأمر بالغ الخطورة.

ـ بالغ الخطورة؟ تكلَّمْ، يا عبد العزيز.

ـ إنّ حسّانَ بنَ النّعمان نائمٌ على الغار الّذي أورثه إيَّاهُ سابقوْه، فلم يَقُمْ بأيٍّ عمل...

ـ هذا ما أَعرفه.

ـ ولكن، يا عبد الملك، أفـريقية بـلاد شاسعـة المسـاحة متعـدِّدة الأَصقاعِ، وثنيَّـة المعتقد، ثـريـة، كنوزها لا تنضب. باستطاعة رجل مخلص مقدام، أَنْ يُسَيْطِرَ على أصقاعها،وأن يتوسّع ما شاء فيها.

ـ ومن أين تأتي بهذا الرجل؟

ـ هو الآن بين يديك.

ـ من ؟ موسى؟ أَلا ترى أَنّهُ شيخٌ هرم؟

ـ ولَهْ، يا مولاي، وأَطلقْ يدَه، فسوف ترى منه العجب العجاب. فموسى...

ـ أَتَسْخَرُ منيّ، يا عبدَ العزيز؟

ـ بل أَقول الحقّ. أَصبح العرب من الضعف والوَهَن، حتّى بات أعداؤُنا يطمعون بنا. ولن يمضي وقتٌ طويل، حتّى يتغلّب علينا البربر ويتحكّمون بنا، وقد يُخرجونا مِنْ أفريقية، وعندئذٍ يَصْعُبُ بلْ يستحيلُ عَلَيْنا استعادة تلك الدّيار.

ـ ماذا ترى يا موسى؟

ـ أَنا عبدُ مولاي.

ـ هلْ تقوى على النّهوضِ بهذهِ المهام الجِسام[١٩]؟

ـ الأَمل باللّهِ يا مولاي، فبهِ ومِنْهُ النَّجاح. ما زلتُ قويّ السّاعد، نيِّر البصيرة، مطمئنّاً إلى قُدْرَتي، واثقاً بنفسي طامحاً إلى خدمةِ الخلافة.

ـ وَلَّيْناكَ أفريقية، يا موسى بن نصير، وأَطلَقْنا فيها يدَكَ، فهُبَّ إليها برجالِكَ، واعْمَلْ لنصرَةِ وعزَّة العرب.

ـ لن أَرتاحَ، يا مولاي، قبل أَن أَبْلُغَ الهدفَ الّذي أَسعى جاهِداً إليه.

ـ إذهبْ وعينُ المولى ترعاك.

وقف موسى، وقبّل يدي أمير المؤمنين، ورفع آيات الشّكر والامتنان إلى صديقه عبد العزيز، وحمدَ اللّه وشكرَه على نعمه، ثمّ استأذن وانصرف. أخذ موسى يستعدُّ للذّهاب على رأس حملة كبرى إلى أفريقية لاستلام مهام منصبه. وقبلَ أَن يسيرَ إليها، جمع جيوشه ومعاونيه، وخطب فيهم وفي مَنْ اجتمع حوله، وقال: «أيّها النّاس، شاء المولى العليّ القدير، بحكمته الفائقة أَنْ يجري فتح القارّة الأفريقيّة على يدنا، وها نحن إليْها نسير، معتمدين على شجاعةٍ وحكمةٍ نتحلّى بها. فلنقدمْ جميعاً بقلبٍ واحدٍ ويدٍ واحدةٍ ولنتشبَّثْ بكل أَرض ندخلها، ولا يتراجعَن واحدُنا

شبراً، وإنْ كان ثمنُ ذلك الشبر دماً يهرق وأَنْفاساً تُزْهَق. فالحياةُ فانية والأمة خالدة. مَنْ أَقدمَ سَيُخَلَّدُ ذِكْرُهُ في صفحاتِ مآثر الأمة بما أتاها مِنْ خير على يده، ومَن هربَ أو توانى فمرذول إلى الأبد.

أيّها النّاس، الطريق التي سنباشر السَّير عليها شاقة صعبة. فمَنْ له طاقةٌ بها فليقدمْ، ومَن يخافُ الحرمان والشدّة والألمَ والقتال فليحجم[٢٠].

أنا رجل كأحدكم. فمَن رأى منّي حسنة فليحمد اللّه،وليحضّ على مثلها. ومن رأى منّي سيّئة فليذكُرْها، فإنّي أُخطىء كما تُخطئون،وأُصيب كما تصيبون. وسوف تكون لكم عطايا نضعفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً. ومن كانت له حاجة فليرفعْها إلينا، وله عندنا قضاؤها ما عزَّ وهان، مع المواساة إن شاءَ اللَّه».

مشى موسى بن نصير في مقدّمة الجيوش يواكبه من أولاده عبدُ اللّه، وعبدُ العزيز، ومروان، وعبد الأعلى، وعبد الملك، وعبد الرّحمن،وكان يأكل ممّا

يـأكلون،ويشربُ مِمّـا يشربون، ويقـاسي ما يقـاسون، وينـامُ حيثُ ينامـون. وما إن وصـلَ إلى القَيرَوان، في أرض تونس اليّوم، حتىّ وجـد العرب عـلى أسوءِ مـا يكون، فهم متفرِّقون وموزَّعون شيعاً، لا يسـاند الَأخ أخـاه. وقـد تـولّى عليهم الضعفُ ورْوحُ الاتكَـالِيَّـةِ والتّخاذل والانهزاميَّة، لا يجـرؤونَ على الـظهورِ خـوفاً من سْطوَةِ البَرْبَرِ، ولا يَبْرُزوْنَ إلى عيد، معزولـون في ديارهم، غرباءُ في أفريقية.

عزَّ على القائد المغـوار أَنْ يرى مـا رأى، وشعرَ بنـابِ الَألم يَنْهَشُ في كبـدِهِ، فـراح يشـدِّدُ من عـزائم القـوم، ويؤمّلُهم، ويـذكِّـرُهُم بمـاضي من سبَقَهم، ويحفّـزُهُم على الَأعمـالِ المجيدة، ومـا زالَ حتىَّ جمـعَ شملَ ما تفرَّق، وقوّى أَواصرَ ما وَهَنَ، فأحيـا الآمال الموات. وغالباً ما كـان يلهج بمثـل هذا القـول: «إنّي لرجلكم، ولكنّي عاجـزٌ وحدي عن إتمـامِ ما وطّدتُ النّفس عليه. عليكم أَنْ تحارِبوا الخوفَ في أَنفسِكُم، وتتغلّبوا على التوّاكلِ وتنبُذوا الأحقادَ، وتَجْتَمِعُوا على التَّسامُحِ والخير، وتُقبِلُوا على الوثوقِ بأنفسكم».

تنـاقل النـاس خبرَ وصـولِ موسى وأهـدافه في أفريقيةَ، فـدبَّت الحميّة في النفـوس، فأقبلوا مِنْ كـلِّ صوبٍ إلى القيروان.

وذات يوم، جَمع النّاس، ووقف فيهم خطيباً، وقال: «أيّها الناس، إنّما كانَ قبلي على أفريقية أحـدُ رجلين: مسـالمٌ يُحِبُّ العافيـة، ويرضى بـالـدون من العـطيَّـة، ويكـره أنْ يُكلَّم ويحبّ أنْ يسلم، أو رجــلٌ ضعيف العقيـدة، قليل المعـرفة، راضٍ بـالهوانِ. وليس أخـا حرب إلاّ مَن اكتحل السَّهـر وأحسنَ النَّظرَ، وخـاض الغَمْـرَ، وَسَمَتْ به هِمّتُـه. إنْ ظفرَ لم يـزدْه الظَّفـرُ إلاّ حـذراً، وإنْ نُكِبَ أَظهرَ جـلادَةً وصبراً. وبعـد، فإنَّ كلَّ مَنْ كانَ قبلي كان يعْمد إلى العدوّ الأقصى، ويَتْرُك عدوّاً منه أدنى ينتهزُ الفرصةَ، ويدُلُّ مِنه على العـوْرة، ويكونُ عوناً عليه عند النكبة. والله والله، لا أُريم[٢١]، هذه القلاع والجبال المُمتَنِعةَ، حتى يَضَـعَ الله أَرفعَها، ويَــذِلَّ أَمنَعَهـا، ويْفتَحَهــا عـلى العــرَبِ بعضهـا أو جميعها، أو يَحكُم اللّهُ لي، وهو خيرُ الحاكمين».

بثَّ مــوسى الأعـينَ،وراحَ يســألُ عنِ البـــلادِ

وطبيعَتها وقلاعها وأَهْلها وعاداتهم وعن القبائل المرتدَّة وقوَّتها وما يُمْكِنُ أَن يفيد مِنها إنْ أعادها إلى الطاعة. ثمَّ جمعَ صفوفَ العَربِ ونَصَحهم بالشدَّة، ووزَّع عليهم السِّلاح، وأَشرفَ على تدريبهم، ونفخ فيهم روحَ الحَميَّة والعزَّة. وبعد أن استكمل دراساته، وتجمَّعَتْ لَديْه المعلومات التي يمكنه أَن يفيدَ مِنْها، أخذَ يعدُّ العدّة ويخطِّط بعزم أكيدٍ وحذرٍ واعٍ لاستكمالِ فتح أفْريقيَة والمَغْرب الأقْصَى وسحقِ العدوّ أَيْنما وُجِد.

وذاتَ مساءٍ جمع حوْلَه قادتَهُ وأَوْلادَهُ، وقال:

ـ يا عبدَ اللَّه!

ـ أبي.

ـ أين تقعُ قلعة «زغوان»؟

ـ إنها تتوسَّط المسافَةَ بين القيروان وتونسَ، ولا تبعد عنَّا أكثر من مسيرة يومٍ واحدٍ.

ـ وما عَنِ المُدافِعِينْ عَنْها؟

ـ أَلفُ فارس.

ـ نحنُ، يا بنيّ، في القيروان، نعيشُ محاطين

بـالأعداء، والمغيرون، يهـاجمـون رجـالنـا ليـل نهار، ويجعلون قـاعدتنـا هذه غـير آمنة، فقـد حان الـوقتُ كي ندخلَهم في طاعِتنا، لنرتاح من شرورِهم، فنأْمن على أنفسنا منهم، فهل لك طاقة بزغوان»؟

ـ أَيسأَلُني أبي عمَّا إذا كانت لي جرأَةُ القتـالِ؟

ـ إسْمَـعْ إذاً. لتتألَّف أَوّل كتيبـة من خمسـمئة فارس مجهَّزة بالسِّلاح ولتَتَّجِه في أَوَّل فُرصـة سانحـةٍ، تحت جناحِ الظلام إلى زَغْـوان. وعِنْدَمـا تُصْبحُ عـلى بُعْدِ مسيرة ساعة واحدة مِنْها، اقسمِ الكتيبـة إلى خمس فصائل، على كلٍّ منها قائـدٌ تَثِقُ بِهِ. وعِنْـدَ تمامِ هـذه الترتيباتِ هـاجِمُوا القلعَـة مِن جهاتِهـا جميعاً معتمـدين على عُنصُرَي السُّرعةِ والمفاجأة، ولا تعودوا إلى القَيْرَوان إلّا وقد أتاكُم الله نصراً مبيناً.

يا بنيّ! لا تعيروا انتباهكم إلى مَنْ هم خارج الأسـوار... فـالهَلَعُ(٢٢) سيـدبُّ في نـفـوسِهـم وسيَسْتَسْلِمون إلَيْكم دونَ حرب.

يـا عبـد الله، حـافظ عـلى حيـاةِ رجـالـكِ مـا

استطعت، وصُن كرامَتكَ قبلَ حياتِكَ. اذهبْ، وفَّقَك الله، ولا تنسَ أنَّنا عَليكَ عَقدْنا آمالَ الأمَّة.

* * *

مشى عبدُالله بجَيْشِه إلى «زَغْوان»، واعتمد الخطّة الَّتي وضعها والدُه موسى. وفي هذه الأثناء كانت كتيبةٌ أخرى من خمسمئة فارس تتوَجَّه إلى جوارِ القَيْرَوان تجاهِدُ وتحارِبُ وتناوِشُ للقضاءِ على جميع جيوبِ المقاوَمَةِ بأقصى ما يُمكِن مِنَ السُّرعة.

وما إنْ وصل عبدُالله بالقربِ من زغوان، حتّى قال لرجاله: «وضع موسى ثقتَهُ بنا»،وهي المرَّة الأولى التي نخرجُ فيها إلى فتح، فعلينا أنْ ننتصرَ أو نموت. عندَما تسمَعُونَ نداءَ الحرب هاجِموا جميعُكم دفعةً واحدةً متكاتفينَ متساندين. والنَّصر لنا.

* * *

وفي السَّاعة المقرّرة، تقدَّمَتِ الفَصَائلُ بسرعةٍ خاطفة وثباتٍ عنيدٍ باتجاه زَغْوانَ،وقد عقدت النيَّة على فتحِها مَهْما غلا الثَّمن.

لم تمضِ ساعتان على بدء المسيرة حتّى كانَ الكشّافةُ يَفِدُون على عبدِ الله. وقال أَحدُهُم:

ـ وصلتِ الفصائلُ جميعُها إلى الأسوارِ، والقلعة ما زالت تغطُّ في نومٍ عميقٍ.

ـ باشِروا الهجومَ فورًا.

ودوَّت صيحةُ الحرب. فشقّت ظلامَ اللَّيل وألقت الرُّعْبَ في قلوب الأعْداءِ، فإذا بأبْوابِ القَلْعَةِ تنفتح وتتدفَّق منها فصيلتان إلى داخل الأسْوار. التحمَتِ الأجْسامُ، ودارت مَعركةٌ مخيفةٌ بالسَّيف معَ جنودِ الأعداءِ في ضوءِ القمر.

وما إن انبلَجَ الفَجْرُ حتَّى برزَ عبدُالله للأعداء قائلًا:

ـ إفتحوا أبوابَ القلعةِ، واترُكوا أَسلِحتَكُم في أماكِنها، فقد أَمَّنتُكم على حياتِكم وأَرزَاقِكُم.

تشاوَر القومُ فيما بينَهم، فرأوا أنَّه لا بدّ مِنَ الاستسلام، ففعلوا.

ولَمْ يَطُلِ الأمرُ حتَّى افْتُتِحَتْ زغوان، وسقطت

بين يدَيّ عبدِ الله. عندئذ ترك فيها مئة فارس، وقَفَلَ راجعاً إلى القيروان.

وصلت بشائرُ النَّصْرِ إلَى موسى، ففرِح وَشَكَر المَوْلَى تعالى، وخرَجَ بِنَفْسِه يُرَافِقهُ جميعُ قادَةِ العرب وأَعيانهم لاستِقْبالِ عبدِالله وجُنودِه تقديراً لهم على بسالَتِهم.

٤ ـ احتلال المغرب

كان قصرُ موسى يعجُّ بالأعيانِ والقادةِ حينَ أتاهُ أحدُ الحُرَّاس وقال له:

ـ في البابِ امرأةٌ تَطلُبُ مواجهَتَكَ.

ـ دَعْها تَدْخُل.

وما إنْ مثَلتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، حتَّى قالت:

ـ يا ابن نصير.

ـ ما وراءك يا امرأة؟

ـ لقد طبَّقت شهرتك الآفاق. إنَّك جمعت كلمة العرب، وإذا بهم يد واحدة في خدمة الأمّة العربية. لي طلبٌ لَدَيْك. هلْ تستجيبه؟

ـ لن نردَّ لكِ طلباً إنْ كان في مقدورِنا إتمامه.

ـ أتعرف عقبة بنَ نافع؟

ـ ومَنْ لا يعرفه؟

ـ أتدري كيفَ قتِل؟

ـ إنَّ كسيلةَ جَمَعَ مِنَ البَربَر جموعاً غفيرةً، وهاجمَ بها الجيوشَ العربيَّة، فكانت معركةُ تَهْوَذَة المشؤومة التي قُتِلَ فيها عقبة.

ـ إنَّ مَقْتَلَهُ على يدِ البَرْبَرِ بعدَ كلِّ الأمجادِ الَّتي أَوْرَثها العرب ترك في نفوسهم جرحاً لن يَندَمِلَ. وقد ثأر زهيرُ بنُ قيس مِن كسَيلة وأتباعه.

ـ وما تَبْتَغِيْنَ منّا؟

ـ كلُّ ما أَبتغيه، أن تحتلَّ جيوشُنَا سَجُوْمَه، مواطِنَ آلِ كسيْلة، وأنْ تُطلِق يدَ أولادي عياضَ وعثمانَ وأبي عُبَيْدةَ فيهم ليثأروا لأبيهم.

ـ لكِ منَّا عهدٌ، يا امرأة، أنَّنا سنحقّق أُمنيتكِ عِنْدَما تدقُّ الساعة.

ـ عسى موعدنا معها بات قريباً.

ـ الأمور مرهونةٌ بمواقيتها.

ـ لا حاجة بنا إلى من يحثُّنا على أمرٍ نرغبُ فيه ونسعى إليه.

ـ للّه الحمد.

ـ البربر محاربونَ أقوياء الشكيمةِ، لا يهابُوْنَ الموت، ولا يتراجعون متى أَقْبَلُوا على حرب..

ـ نحن نُدْرِكُ ما تقولين، وسنعدُّ للأمرِ عدّته ولن نَنْفَكّ حتّى نبلغَ وَطَرنا(٢٣).

ـ أخذ الله بناصركم، وحفظكم ذخراً للأمّة العربيّة.

* * *

بعد أسابيع قليلةٍ سادَت القَيْروانَ حركةٌ غيرُ معتادة... وتدفّقتْ إليها جموعٌ غفيرة. تحدّث الناس عن حملةٍ جديدة سيقوم بها موسى بن نصير.

وفي ذات مساء دقَّ نفيرُ الحرب. لبس العرب دروعَهُم وخوذَهم وتقلّدوا سيوفَهم، ومشوا إلى الحربِ،والحماس يملأ منهم النفوسَ، وقد تاقوا للتغلّب على البربر والانتقام لعقبة.

أعدَّ موسى خطةَ الهُجوم، ومشى في مقدّمَةِ جيشِهِ، وجَعَلَ عياضَ بنَ عقَبَةَ بن نافع بجانبه.

أَخضَع موسى القبائلَ التي خرجت على طاعةِ

الخليفـة، وأخذت قبـائلُ أخـرى تتراجـعُ أمامـه نحوَ الغربِ، فأصـدَرَ أوامرَه بـوجوب تعقُّبِهَـا وإخضـاعِهـا لاستئصالِ شَأفَةِ[٢٤] التمرّد وتوفير الأمان لجيوشه.

وأرسل موسى الرسلَ إلى صاحب مصرَ يُخبِرُهُ بما حصل وممّا قاله: «السلامُ عليكم، نخبرُكم أنَّ الله قد أَتانا من لدنهُ بنصر مبـين، فقد تمَّ لنـا افتتاح زَغْـوانَ وسجومَه، وأَخْضَعْنا معظم قبـائل الـبربر. وقـد بلغت ضحايا البربر في هذا القتال، ما لم تبلُغْه في أيَّـةِ واقعةٍ أخـرى، وأَسَرْنـا عـدداً ضخـماً من مقـاتليهم إذ بلغ الأسرى ثلاثين ألفـاً. نحمد العـليّ العظيم عـلى النِّعَم التي مَنَّ بها علينا، ونرجو منه التوفيق في كـلٍّ ما نقـوم به».

ولمّا وصل الرّسولُ إلى مصرَ، ودفـعَ الكتابَ إلى صاحبها، هالَهُ رقمُ الأسرى العظيم، واعتقدَ أنَّه مبالَغٌ فيه، فدعا أحدَ مستشاريه، وقال له:

ـ ويحك، اقرأ هذا الكتاب، وآبدِ رأيك.

فالتفت المستشار إلى الرسول، وسأله:

ـ ما عدَدُ الأسرى من البربَر؟

ـ إنَّه يا مولاي، أكثر من أن يُحصى، فهو بعدد رمال الصحراء.

ـ هل دخلتم سَجُومَه؟

ـ دخلت جيوشُنا سجومه، بعدَ أنْ كدنا نفني آل كسيلة.

ـ وما ينوي موسى أن يفعل؟

ـ هذا ما لم يطلعني عليه.

وراح المستشارُ يقرأ الكتاب، ويهزُّ رأسهُ هازئاً. هذا وهمٌ. سأُراجعهُ في ذلك وأَطلب مِنه أن يَذْكُرَ الرَّقم الصحيح.

وكتب صاحبُ مصر إلى موسى:

«بلغني كتابك، وتذكُر فيه أنَّك قد أَسَرْتَ من الأعداء ثلاثين ألف فارس. فاستكثرتُ ذلك، وظَنَنْتُه وَهْماً من الكاتب، فاكتبْ إليّ الآن حقيقةَ الأمر، واحذرِ الوهم»!

ولمّا عاد الرّسول إلى سجومه، وأبلغَ موسى كتاب صاحب مصرَ، غضب.

ـ ألا يثِقُ القومُ بكلامِنا؟

ـ كلاَّ، يا مولاي، إنّما يعتقدون أنَّ هناك خطأً من الكاتب.

ـ ليس هناك خطأٌ، لأنَّني جعلتُ الرّجال في صفوفٍ في كلٍّ منها مئة أسير، وجعلت أولادي وأبناءَ عقبة يعدُّونها، فإذا هناك ستمئة صفّ منتظم. حقاً إنَّ في كتابي خطأً يجب تصويبه، فإنَّ عدد الأسرى هو ستون ألف أسير، وليس ثلاثين كما ذكرت.

هيّا يا حَمدان ارتحْ يومَين أو ثلاثة، ثمَّ عدْ إلَينا لتحملَ جوابَنا إلى صاحب مصر. وفيه كتب موسى يقول: «بلغني أنَّ الأمير، أبْقاهُ اللّهُ، يذكرُ أنَّه استكثر ما جاءَهُ منَ العددِ الذي أفاء اللّهُ عليّ، وأنَّه ظنَّ أنَّ ذلك وهمٌ من الكاتب. لقد كان ذلك وهماً على ما ظنّهُ الأميرُ والعدد، أيها الأمير، هو ستون ألفاً، حقاً ثابتاً بلا وهم».



هذا النّصرُ المبين الَّذي أحرزَه موسى مكّنَهُ من احتلالِ بلادِ المغربِ ما عدا إقليم طنجة. وهو إقليم

فسيْحٌ يطلُّ على المحيطِ الأَطلسي والمضيقِ الّذي عُرِفَ فيما بعد بمضيق جبل طارق.

لم يكن لمطامحِ موسى من حدودٍ يَقِفُ عِنْدَهَا فراح يَرْنو إلى أبعدَ ممّا وصلَ إليه بكثير، وكان عبدُ العزيز صديق موسى، قد تُوفِّيَ، وتولَّى الخلافة مكانَه الوَليد، وقد كثر حسّاده وأعداؤُه. وكان أشدَّهم حماساً عكرمة الّذي راحَ يُحرِّض الوليدَ على الفاتِحِ العظيم.

ـ إنّ آخر ما وصلَنا مِنْ أَخبارِ المغرب، يا عكرمة،أنّ موسى قد استكملَ فتحَهُ، ولم يستعصِ عليه سِوَى سبتة.

ـ النّصر، يا مولاي، يُؤتيه الله مَنْ يشاء.

ـ ما بالُك، أَراك غير مغتبط.

ـ إنّ موسى، يا أميرَ المؤمنين، قد اصطحبَ أبناءَهُ، وهُمْ يُغيرُونَ معه ويقاتلُونَ إلى جانبه، وكذلك أبناءُ عقبةَ بنِ نافع وطارق بن زياد. . .

ـ وما في الأمر؟

ـ أَصبحَ لموسى من الثَّرواتِ والقصورِ والأَمْـلاكِ ما لأَمير المؤمنين.

ـ لا بأسَ في ذلك.

ـ أَصبحَتْ جيـوشُهُ، يـا مولاي، أكـثر من أَنْ تُحصى، وهي كاملةُ العدَدِ والعدَّة، وهي لا تعرف سواه آمراً.

ـ أَتَعْتقدُ أَنَّ موسى يجرؤُ أن يخرجَ على أوامرنا؟

ـ أَيَمْتلِك الخليفةَ وسيلةً تجبره على الطاعة إذا ما عنّ لَهُ أَنْ يعصي؟

ـ ما تريد أَنْ تقول؟

ـ غَدَا[٢٥] موسى بنُ نصيرٍ أميرَ كـلّ تلك البلادِ المفتـوحة، وإليْـهِ تعودُ في كـلِّ أُمورِهـا، وبيدِهِ كـافـة شؤونها. وأَخشى...

ـ هذا حق طبيعيّ له، لا يتنـاقَضُ في شيءٍ معَ إرادتِنـا، إنه أَسـدى[٢٦] للأُمّـة مجداً عـظيماً، فـأَدْخلَ الـبربـرَ في طـاعتِنـا، وقـد بلَغَنـا أَنّـه يعلِّمُهم اللّغـةَ العربيَّة.

ـ نحنُ، لا نُنكِرُ فضل موسى، يا مولاي، ولكنَّنا نَخْشى أنْ يستقلّ بالبلاد الّتي فَتَحها، ويعلنَ نفسه ملكاً عليها.

ـ إنَه رجلٌ ورعٌ مخلصٌ للخليفةِ، ولنْ يقومَ بعملٍ لا نرضاه.

وبينما الوليد وصفيّه[٢٧] عكرُمة في هذا الحوار دخلَ عليهما أحدُ الحجّاب.

ـ مولاي، في الباب رسولٌ من المغرب.

ـ أدْخلْهُ.

بعدَ قليلٍ، مَثُلَ الرسول بين يدي الخليفةِ فسأله الخليفة:

ـ من أين أَنتَ مقبل؟

ـ أُرسلني إليكم موسى من طنجة.

ـ وهل تمَّ فتحها؟

ـ نعم يا مولاي.

ـ وهل كنت هناك؟

ـ نعم، وقد اشتركتُ في الحصار والفتح.

وصلت جيوشنا الآن إلى ساحِل البحر،وقد رأينا هناك جبلاً عظيماً وسط البحر. لمْ يبقَ في البلادِ كلِّها سوى سبتةَ وما حَوْلها.

ـ مَنْ يحكمُها؟

ـ يحكمُها أميرٌ بربريّ قويُّ الشكيمةِ اسمه يوليان، له سلطان عظيم على رعيَّته من البربر وتربُطُهُ صِلات ودٍّ بغيطشة، ملكِ شبه الجزيرة الإيبيريّة.

ـ هل قاتَلْتُمُوْهُ؟

ـ هاجمتْ جيوشُنا سبتَةَ مرّاتٍ عديدة.

ـ وما كان من أمرها؟

ـ كان غيطشةُ يمدُّها مِنَ البَحرِ بالأعتِدَةِ والمؤَن والرّجالِ فيمكّنها من الصّمود، لم يطق موسى المكوثَ طويلاً أمامَها فاستكملَ فتحَ الإقليم المجاور، وأَقام في طنجة حيثُ أَقْبَلَ عليهِ القائدُ طارقُ بنُ زياد.

ـ طارقُ بنُ زياد؟ لم نسمعْ بهِ من قبل.

ـ إنَّه قائدٌ أفريقيّ، من أَتباع(٢٨) موسى. عيّنه

حاكماً على المدينةِ وعاد هو إلى القيروانَ، ليقومَ بأعباءِ إدارَةِ تلك البلاد الغنيَّة الشاسعة.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ إنَّ جيوشَنا، يا مولاي، تحاصِرُ سِبْتة، وتضيّق على أَهْلِها، ولن يطولَ الأَمر حتىّ تستسلم لنا، وتَسْقُطَ في قبضتِنا.

ـ وما خطةُ موسى بعد الآن؟

ـ ينصرِفُ قائدُنا المظفَّر الآن إلى الاهتمام بالأُسطول. إنَّهُ يسعى الآن في بناءِ مئة بارجة حربيَّة، ويعملُ حالياً على شقِّ قناةٍ تصلُ ما بَيْنَ تونسَ ودار الصِّناعة الّتي أَنشأها حسانُ بن النّعمان، ويبلغُ طولُها مسيرة خمس ساعات.

ـ وما النَّفع منها؟

ـ ستكونُ بعد إنجازِها ملاذ(٢٩) السّفن العربية عِنْد هُبَوبِ العَواصف.

ـ هذا كلّ ما عندك؟

ـ يغيرُ طارقُ بن زياد من جهتِهِ أيضاً على سبتـة وجوارِها، ويمنَعُ وصولَ المَدَدِ والأَسْلحةِ إليها.

ـ بلِّغْ سلامنا إلى موسى، وقبل مغـادرتك دمشق إلى القيروان، مرّ بنا واحملْ رسالة منّا إليه.

ـ أَيَأْذَنُ لي مولاي بالانصراف؟

ـ رافقتك السّلامة.

ـ بعد أَن خـرج الـرّسـولُ، التفت الـوليـدُ إلى عكرمةَ، وسأله:

ـ ما رأيْتَ؟

ـ إنَّ رسولَهُ إليْكَ، يا أميرَ المؤمنين، دليل تعلّق ووفاء.

ـ إذاً اطْمَئِنَّ بـالاً، وتعـالَ معي نقضي بعض الوقت في لعب النرد.

***

بعـد بضعة أيّـام عاد الـرّسُول ليحمـلَ كتابَ

الخليفة إلى موسى حيثُ يقول فيه: «أتانا رسولُك وأطْلعَنا على ما وُفِّقت إليه من أعمالٍ مجيدةٍ في سبيلِ أمَّتِك، فسُرِرْنا بما أفاءَ الله علينا من خيرٍ، ولا حاجة بنا لأن نوصيك بالعدلِ في الرعيَّةِ، ونحنُ معَكَ في ما أقدمتَ عليه، ونوْليك على كلٍّ ما افْتَتَحْتَ من أقاليمَ وحواضر.»

***

أخذ العرب يتدرّبونَ على الملاحة والفنون البحريّة الأُخرى، لأَنّ موسى قرّر بينه وبين نفسه أن يخوضَ البحر، ويجتاحَ بلادَ الأَنْدَلس الفاتنة والولاياتِ الإسبانيّة الأُخرى المشرقة، حيث كان قد مضى على حكمِ القوْط الجائرِ لتلك البلادِ قرنَيْن ونصف القرن. وكان العربُ قد حاولوا في النّصف الثّاني من القرنِ الأوَّلِ الهجري غزو إسبانية من أفريقية، فَأغاروا على السواحلِ الإسبانيّة، في عهدِ الملك فمبا القوطي إلاّ أنّهم فَشِلُوْا، وتوالى على العرشِ من بعدِه أرفنج وأجيكا وأخيلا.

***

لمْ تتوقّفِ الحملاتُ على سبتةَ وعلى جزرِ البحر المتوسّط، حيثُ أصابَ العرب بعضَ النّجاحِ في جزر صقلّية وسردينيا واستوْلُوْا على ميورقة ومنورقة.

... وانتشرتِ الحضارةُ العربيَّة في كلّ أصقاعِ افريقية.

وفي هذه الأثناءِ مات غيطشةُ وخَلَفهُ أخيلا، غير أَنَّ النبلاءَ تآمَرُوا عَلَيْه وخلَعُوهُ واغتصبُوْا العرش، وولّوا مكانَه قائدَ الجيشِ القوطي رودريك الَّذي يسمِّيه العربَ لذريق.

تحالفَ يوليان، حاكمُ سبتةَ، معَ أَخيْلا لِلتَّخَلُّصِ من لذريق بسبب ما كان يُضْمِر لَهُ من الحقدِ والكُرْهِ، لأنّ سبق له أنْ أساء التّصرّف مع ولدَيه.

أُخذ الحليفان يتدارسان خطةً محكمة تمكّنُهما من الفوز على خصمِهِمَا لذريق. وكان هدفُ يوليان مجرَّد الانتقام لنفسِه.

وكان الحصارُ العربي قد اشتدَّ على يوليان

وانقطع مددُ إسبانيا عنه،ولمْ يبقَ عندَهُ أيّ أملٍ في الصُّمود.

وذات مساءٍ نادى أحد أخصّائه وقال له:

ـ هل لكَ بالذّهاب إلى طنجة؟

ـ وماذا هناك، يا مولاي؟

ـ تحملُ هذه الرّسالةَ إلى طارق بنِ زياد. على جناحِ السّرعَةِ، وتَسَلِّمُه إيَّاها قبلَ أنْ تسقط سبتة.

ـ كما تشاء، يا مولاي.

***

وصل رسول يوليان إلى مخيّم طارق، ودفع إليه رسالة مولاهُ الّذي بها يقول:

ـ إنْ شئتَ أنْ تنهي الحربَ بَيْنَنَا، فأنا أستطيعُ مع بعضِ رجالِنا أنْ نكونَ أُدِلّاء العرب في غزْوِ إسبانيا».

أجابَ طارقُ الرّسول قائلاً:

«اتصلْ بموسى، فقد تلاقي الفكـرة لَدَيْـه قبولاً، ومن ثمّ نقرّرُ ما يتوجّبُ عمله».

أرسلِ عندئذٍ يوليان لساعتِـهِ الرُّسُـلَ إلى موسى وفاتحَهُ في الأمرِ فأجابه:

ـ إنْ كنتَ جادّاً فيما تقول، اقْصِدْ تونس ثمّ دار الصّناعةِ فيقودُك رجالي إليّ،ونرى ما سيكون؟

وما هي إلاّ بضعةُ أيّـام حتّى كان مـوسى يَجْتَمِعُ بيوليان على متن إحدى السّفن الحربيّة العربيّة.

ـ أراكَ، يا يوليان، جادّاً في حديثك.

ـ ولماذا لا أكون جادّاً، فأنتم تملكون السّفن لنقل الـرّجال والأعتـدة والمؤن، وأنّ الأندلس في حـالة من الضعفِ والانهيار لا مثيل لها، وأعيانها متفرّقون شيعـاً وأحزاباً، وملكها المخلوع في قصري لا يملك من أمره شيئـاً، ولن يتوانى عن امـدادِكُم بـالـرّجـالِ عـلى أنْ يستعيدَ عرشَهُ المغتصب.

ـ إنّني أتَـطلّع منـذ زمنٍ إلى غـزوِ إسبـانيـا ولكن...

ـ ولكنْ مـاذا، يا مـوسى، الأندلس بـلادٌ فيهـا حسن، يفـوق ما في العـالم أجمع، وقـد جمعت أرضها من المنـافـع والخـيرات وطيب المـزارع ووفــرة الثِّمـارِ وغزارة المياه ما عجزتْ أيُّ أرض عن حمله.

ـ ستَجدُ فيها من الخصبِ والثرواتِ ما لا تجـده في أيّ مكـان. أمّا رجـالهـا فجبنـاءُ خـاملون ضعيفـو البأس.

ـ والله إنّك تُشَوِّقني إلى الفتـح ، ولكنْي عاجـزٌ عَنْـهُ الآن. وعـليّ قبـل أنْ أقـدِمُ أنْ أكـاشفَ مـولاي الخليفة.

ـ أتسمـح لي إذاً أنْ أقودَ رجـالي إليها، فـأنْزِلُ في ساحلِها، وأقاتلُ مَنِ فيها وأسبي نساءَهـا وأطفالها وأستولي على ثرواتها وأعود إليك سالماً معافى.

ـ هل أفهم. . . ؟

ـ أنـا واحـدٌ من رجـالِـك، وســأحـاربُ تحت إمْرَتِكَ، هل أنهيْتَ حربَك مع سبتة؟

ـ لقد أنهينا حـربنا مـع سبتة وسنعـاملُكم جميعاً كأخوانٍ لنا.

ـ متى يأذن لي موسى، بالمسير إلى إسبانيا؟

ـ ساعةَ تشاءُ يا يوليان.

ـ جمع حاكمُ سبتة، من أَهلِهِ جمعاً غفيـراً،وسار بهم على مركبتين إلى ساحل إسبانيا، فنَزِلَ فيها، وأغارَ وسَبَى وسلبَ، وعاد مع رجاله سالمين إلى سبتة.

شاع الأَمرُ بَيْنَ النَّاسِ وبـدا لموسى أَنّ الـرّجل لا يخاتلُ فاطمأَنَّ إلَيْه. ولم يرَ بدّاً من الرُّجوعِ في الأَمرِ إلى الـوَليد. فـأَوْفدَ إليْـهِ مِنْ ثقـاتِـهِ مَنْ يُـطلعُـه عـلى الواقِعِ.

تردّد الخليفة بشأن غزو إسبانيا لـلأَخطار الّتي قد يتعرَّض لها العربُ، كما خَشيَ أن تضيعَ أفريقيا من أيديهم.

ـ ما بال أميرُ المؤمنين؟

ـ آنظرْ ما يقول رسلُ موسى.

اعتقدَ عكرمَـةُ أَنَّ الإسبانَ سـوفَ يتغلَّبُوْنَ عـلى موسى ويقضون عليه، فيتخلّص منه دون أَنْ يكـونُ لهُ ضلع في مصرعه.

ـ إنَ الفكرةَ رائعة حقاً، يا مولاي.

ـ ولكنّي ضنـين بحيـاة العَرب، وغـير واثق من النَّصر.

ـ دعْـهُ، يا مـولاي، ولا تثبطْ هُمته، فلعـلّ الله يساعدُهُ على فتح مبين.

وعاد الرّسـولُ يَحْمِل رسـالَة الـوَليد وبهـا يحضُّ مـوسى على الفتح، ومّمـا أُوصـاه بـه قـال: «إيّـاك وأَنْ يخدعَك يوليان، ويوْقعَكَ في مكائِده، فتندمَ بعدَ فـواتِ الأَوان».

اعتمـد القائـد العربيّ الحـذَرُ في التَّعـامُـل مـع يوليـانَ، بـالـرُّغم من تسلِيم سبتــةَ، معقله الحصَين، للعرب، ودعمه إيّاهـم بالسّفن والأدِلّاء، خـوفاً من أَنْ يتعـرّض لملامـة الخليفة. فـأَرسل في طلب طريف بنِ مالك، وما إن مثُل هذا بين يدَيْه حتّى قال له٠

ـ لكَ عندي مهمَّةٌ في غايـةِ الخطورَةِ، فهلْ أنتَ لها؟

ـ مرْ يا موسى.

ـ لقد قرَّرْت أنْ أفتَتِحُ إسبانيا.

ـ نعمَ الفكرة.

ـ ولكنّيَ ما زلتُ غير واثقٍ، من صـاحبِ سبتة، وأودُّ أنْ أتأكَّد أنَّ الفتحَ ميسُوْرٌ، ويجِبُ أنْ تتوافرَ لديَّ المعلوماتُ الوافيـةُ عن مدى المخـاطر التي يتعـرّض لها جيشُنا في حال القيام بهجومٍ على إسبانيا.

ـ إنَّ تصـرُّفكَ هُـوَ الحكمةُ عينهـا. ومـا الّـذي تريدُني أنْ أفْعل؟

ـ خـذْ خمسمايـة مقاتـل من رِجَـالِنـا الأشـدَّاء، ولْيكنْ يوليان دليلَك، واتَّجهْ بهم إلى السّاحل الإسباني، واسْتَكشفِ الطريقَ، وتحقَّقْ بنفسِكَ مِنْ أنَّ الخـلافاتِ تعْصُفُ بَـيْنَ لذريق المغتصب وأخيـلا ملك الأنـدلس

المخلوع، واتَّصلْ بهذا الأخير إنْ أمكنَكَ الظرف، وانظرْ في ما يريد.

ـ أَرى أنّ جميعَ الظروف مؤاتية كي نقومَ بغزوة موفَّقة.

ـ إذهبْ نصرَكَ الله، يا طريف، ولا تعدْ إلَيْنا إلّا ظافراً.

***

ما هي سوى أَيّام قليلةٍ حتّى كان طريفُ يتّجهُ على متنِ أَربعة سفن حربيّة من سفن يوليان إلى ثغور الأَندلس الجنوبيّة، لم يلقَ في البحر أَيَّة مقاومة. ولمَّا اقتربَتِ الحملةُ من السّاحل الإسْباني أرسلَ طريفٌ عشرةً من رجالِهِ للاستكشافِ، ودراسة طبيعةِ السَّاحِلِ الّذي سيَنْزِلوْن فيه، ومدى قوةِ التّحصيناتِ التي على المهاجمين اقتحامها.

وبعدئذ تقدَّمَتِ السُّفنُ، ورسَتْ في أَحد الثّغور، ونَزِل المقاتِلُوْن إلى البِّر، وراحوا يجتاحون القرى،

وَيَسْتَـوْلون على الغنائمِ ، ويتنقلُّون آمنـين مِنْ ثَغْـرٍ إلى آخر، وكان رجال أحيلا يساعدونهم في ذلك ثمّ عادوا سالمين إلى المغرب.

عندئذ تأكّدَت لـطريف سهولـةُ الاستيلاءِ عـلى الشّاطِىء الإسْباني.

٥ ـ طارق بن زياد يباشر احتلال الأندلس

كان موسى ينتـظرُ عودةَ الحملةِ بفـارغِ الصبر، فلما رأى النجاح الَّذي أحرزتُه، قرَّر التحرُّكَ بأقصى ما يكون مِنَ السُّرعة. وفكّر بطارق بنِ زيـاد الذي كـانَ له شأنٌ في الفتوح العربيَّـة، ليُشْرِكَـه بمثلِ هـذا الأمر الخطير.

ـ يا طارق، قد وَلَّيناكَ قِيـادة الجيش في إسبانيا، فاجمعِ الرِّجالَ، وتوجهْ إليها لتوِّك، وليأتِكَ اللَّه القوةَ كي تـظفرَ بمـا ابتغَيْناه مِنْ نصر. فلكَ من صـدقِ العزيمـةِ وقوّة الشكيمَة، وشدّة البأس، وصـلابـةَ العُود، وحسنِ الكلام، وخبرة في النّاس، ما يجعلُكَ أهلاً للاضطلاع بهذه المهمَّة الجليلة. وسيكونُ بجانِبك يوليانُ وطريفُ، وخيرة قادة العرب.

أخذَ اللَّه بيدك.

ولّما تمَّتِ الاستعدادات، وجهَّز يوليان السُّفنَ بكلِّ ما يحتاج إليه الحملة مِنْ أعتدة وسلاحٍ ومؤنٍ، سار طارق على رأس هذا الجيش الَّذي يتألف من سبعةِ آلاف مقاتلٍ جُلُّهم منَ البَرْبَرِ. ووقف على متن سفينته يتأملُ عجائبَ الكونِ، وَيْنظُرُ إلى السماءِ متوجِّهاً إلى الله بقلبهِ، طالباً منه العَوْن والقوّة.

أَلقَتِ السُّفنُ مراسيها قبالةَ الجزيرة الخضراء عندَ صخرةٍ جبّارةٍ حَمَلَتْ اسمَ طارق، وتُعْرَفُ حتّى اليوم باسمِ «جبل طارق». وبعد أن أخذ الجنود قسطاً من الراحة أكملوا مسيرَتَهُم، فقادهم يوليان إلى مكان آمنٍ يَعْرِفُه في جنوبي إسبانيا، يقال له البحيرة. نَزِلتْ جيوش طارق في تلك المحلة، وتوزَّعت على الساحل القريبِ دونَ أَنْ يعترِضَها معترض.

كانت الثورة مشتَعِلَة في إسْبانيا بينِ لذريق وأخيلا، فأخذ الإسبانيّون يهرُبُون أمامَ العربِ المهاجمينَ حاملينَ ما خفّ من أمتعتهم.

عَلِمَ لذريق بنزول العرب على أرض إسبانيا

فـأدرك الخطر الَّذي تتعرَّضُ لـه بلادَه. فجمـع قـادة الرأي وأعيانَ البلاد، وقال لهم: «يحدق بنا اليوم خطرٌ محقّق، فنحن بحـاجةٍ إلى جهـودكم كي نستـطيـع أنْ نُقـاوم العرب وننتصِرَ عليهم. ولا أخفيكم أَنَّ القـوم يتمتعـون بشدّة المِـرَاس، فعلى كـلٍّ منكم أن يُحَمِّـل نفسَـهُ قدْر طاقتها، ولْنتَّجـه بقواتِنـا جميعـاً إلى لُقيـاهم للوقوف بوجـه زحفِهم الجارف، وردّهم عـلى أعقـابهم خاسرين».

وهكـذا اجتمعت لدى لـذريق جيوشٌ جـرّارةٌ قدِّر عدَدُها بسبعين ألف محـارِب. ولكنَّ هذا الأمر لم يثنِ طـارقَ عن عزيمتِـه، فأخـذ يجتاحُ القـرى والقلاعَ والحصون، ويتقدَّم بسرعة إلى داخل البلاد، ولما حَمَـل إليـهْ رسلُه خـبرَ جيـوش لـذريق، بَعَثَ إلى مـوسى يـطلبُ المزيـد من المـدَدِ(٣٠) للتمكّن من الصُّمـود في وجهِ جيوش خصمِهِ، فأنجدَه بخمسة آلاف محاربٍ.

وقَعَت ذات يوم امرأة عجوزٌ بينَ أيدي العرب، فألحَّت على مَنْ أَسَرَهـا أنْ يَسْمحَ لهـا بمواجهـة طارق فاقتيدَتْ إليه.

ـ ما بالك، يا امرأة؟

ـ هل أنت قائد الجيوشِ العربية؟

ـ نعم.

ـ هل لكَ شامَةٌ في كتفِكَ الأيْسَرِ؟

ـ ولماذا؟ ما شأنُ الشّامَة؟

ـ قل لي.

أمر طارق أحدَ الحضور بالكشف عن كتفِهِ اليُسْرى فإذا فيها شامة.

ـ هل أنتِ ساحرةٌ.

ـ كلا...

ـ إذاً؟

ـ ما اسمك يا رجل؟

ـ طارق.

ـ اسمع، يا طارق. كان زوجي عالماً بالغَيب، مدركاً للحدثان قبلَ وقوعِها. وقد ردّد على مسمعي مراراً أنَّ أميراً غريباً سيحتلُّ الأندلس. وهو رَبْع القامة، ضخم الجثة، أسودُ العينين يحمل على كتفه شامة يَتَمَنْطَق بالسيف. وأرى أن هذه الأوصاف

تنطبق عليك. فأنت هو ذلك الأمير.

ـ ماذا بعد؟

ـ سيكون النّصر بجانبك في جميع المعارك الّتي تخوضها. ستخضع لكَ أقاليمُ بلادي بأجمَعها، ولكن هناك خطرٌ يتهدَّدك ويأتيك على يد أمير آخر يحسُدكَ. لن يستطيعَ الصُّمود في وجهِكَ. استبشر طارق خيراً وأمر بإكرام العجوز وإطلاقها. ولكنّها رفضت وفضّلت ملازمَةَ الجيوش الزَّاحفة لتتأكَّد من أنَّ ما قاله وتنبّأ به زوجها قد تحقَّق.

اقترب جيش لذريق، واشتَّدت مخاوف العرب حين علموا بدنوّه وتخاذلوا. أما طارق فقد ازداد إيماناً بالنّصر ووثوقاً من نفسه. ورأى أن يشدِّد من عزائم الجيش، ويحثّه على التذرّع بالصَّبرِ والإقدامِ على الحربِ، فوقف فيه خطيباً، قال:

«أيّها الناس، أين المفر؟ البحرُ مِنْ ورائكُم والعدوُّ أمامَكم، وليسَ لكم والله إلّا الصِّدق وَالصَّبر. واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيعُ من

الأيتـام عـلى مـائِـدةِ اللِّئـام. وقـد استقبلكم عـدوُّكم بجيوشِه وأسلحته وأقواته[٣١] موفـورة. وأنتم لا عَون لكم إلّا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلّا ما تستخلِصُونَه من أيدي عدوّكم».

وفي صباحِ اليـومِ التّـالي، أقبلتِ الجيـوش الإسبـانية الجـرّارة وعلى رأسهـا لـذريق محمـولاً عـلى دابتين، وفوقَهُ مظلّة مزيَّنة بالأحجار الكريمة من ياقوت وزَبَـرْجَدٍ ودرٍّ، وكـان يرتـدي أفخرَ ثيابه، وسيفُـه إلى جانبه، يحفُّ به[٣٢] قادتُه وأعيان القوم، وهم يلبَسون الزردَ، ويعتمِرون الخوذَ الحديديَّة، ويتقلَّدون السيوف والقسيّ.

التقى الجيشـان على مقـربـة من نهر وادي لكة، الذي يصبّ عند رأس الطرف الأغر.

امتشقَ العربُ سيوفَهم، وكلُّهم إيمـان بقضيتِهم وإخــلاصٌ لقـادتهم. وارتفعت صيحــةُ الحـرب من حناجرِهم، فشقَّت عَنَانَ السَّماء، وإذا بهم يحملُون حملةَ الـرَّجُلِ الـوَاحِدِ عـلى جيـوش الأعداء، فتـدَحْـرَجَتِ

الرؤوس عن الأكتاف، وإذا بالأعداء يتراجعون تحت وطأة العرب الزاحفين.

صُعِقَ لذريق، وصاح بقادَتِه ورجاله كي يصْمدوا، ويصدّوا هجوم العرب. وتوزَّع قادة هؤلاء ينظّمُون صفوف جنودهم، ويتَّخذون لهم مواقع جديدة قبل أن يكرّوا ثانية.

وفي هذه الأثناء أقبل يوليان ومعه أبناء عطرشة الملك المخلوع، يطلُبونَ مقابلة طارق فخرج إليهم سائلاً:

ـ ما الذي تبغون؟

ـ جئنا نسألك الأمان على حياتِنا وأولادِنا ونسائنا وأطفالنا.

ـ عليكم الأمان.

ـ دعانا لذريق إلى مؤازرتِهِ فِي هذه الحرب، ونهانا عن القعود عن نصرتِه، وطلب منا الميل إليه وحذّرنا من عدمِ الاستجابة. ولكنَّنا قلْنا، إنَّ لذريقَ قد غلب على سلطاننا وليس من أهله. وإنما كان مِن

أتباعِنا وقـائد جيشنـا، فقد اغتصب عرشَنا، واستـولى على أملاكِنا وضياعنا. وفكّرنا مليّاً، بما يدعونـا إلَيه، وقلنـا إنَّكم قـوم طـارئـون لكم بـلادكم الشّـاسعـة وأقـاليمكم الخصبـة، ولا حـاجـة لكم إلى استيـطان بلادنا، إنَّما مرادُكم الغنائم، ثمَّ تخرجون عنّا. فجئْنـا إليكم ننصرُكم في حـربكم، حتى إذا انصرفتُم بعـدَ النصر أقْعدْنا في مُلْكِنا مَنْ يستحقُّه.

ـ الآن وقـد أمَّنتكم عـلى حياتكم، وأظهـرتم نواياكم، أراني مخالفاً لكم في الرأي والتفكير.

ـ كيف ذلك وقد مِلنا إليك، ووضَعْنا قوانا تحتَ تصرُّفِكَ، وآخذنا أنفسنا بنصرتك؟

ـ إنكّم، تطلبون منّي أَن أعينكم على استعادة ملكِ أبيكم والانصرافِ عنكم.

ـ إذا ظفرنا، تعيدُ إلينا ضياعَ والدِنا بالأنْـدَلُس وعددها ثلاثة آلاف، وكلّها نفائس مختارة.

فكّـر طارق بينـه وبـين نفسـه: «إنّ مَنْ يخـونُ بـلاده، لَن يتجـرَّأ عـلى قـوم طـارئـين. وأراد أَنْ

يـداوِرَهُم حتى يبقـوا في صفـوفِـه ولا يَسْتَعْـبِدِيهم فأجابهم:

ـ كيف تـريدُون أن أعـدَكم بـديـارٍ ليست لي، وبقـرىً هي ملككم. حـارِبُوا لـذريقَ، وتغلَّبُوا عليـه واستعيدوا مِنه ما اغتصبَه منكم.

ـ أتسمح لنا أن نحارب في صفوفكم؟

ـ إذا شئتم، أَنْ تنـازِلُـوا لـذريقَ، فعليكم أَن تنضمّوا متفَرِّقين إلى كتائبنا، وتطيعـوا أوامرَ قادتِنا، ولا تخرجوا على طاعة أحد منّا. وها هو يوليان قد سبقكم، ويحـاربُ في صفوفِنـا كَواحـدٍ منا. ويتـدخَّلُ مـع جند لذريق وقادته، ويستميل إلينا أعداداً لا تحصى، نَدْمُجُها في كتائبنا. . .

ـ نحن أبناءُ ملوكٍ، لم نعتدِ الانقيادَ لأحد. . .

ـ هذا عائد لكم، لكنّنا نخـيّركم بين أن تبقـوا على حياد، أو أن تكـونوا واحـداً منّا، فـإن رأيْنا منكم الانـدفـاع والإخـلاص والحنكـة والمعـرفـة، عُـدْنـا فسلَّمْناكم القياداتِ الَّتي تطلبون.

وكان كره أبناء عطرشة، أَعمى قلوبهم، فقبلوا

بشروط القائد العربي، فانضمّوا إلَيه مع رجالهم، فوزّعهم على الكتائبِ، وكانت جُلُّها[٣٣] من البربر، وليس فيها من العرب سوى القليل.

كان نهر البرباط يفصل بين الجيشَين. احتفظ في الأيّام الثلاثة الأولى كلٌ منهما بمواقعه. واقتصرت المعارك على بعض المناوشات والاشتباكات، ولم يخسرْ الفريقان سوى قليلٍ من الرّجال.

وكان أبناءُ عطرشةَ يَعرِفُون البلادَ، ومعابرَ النهر، فقادوا بعضَ الكتائب العربيّة ليلاً، وساعدوها على اجتياز الوادي بأمان. ولما أطلَّ فجرُ اليوم الرّابع تَمَّ الالتحامُ بين العربِ والإسبان التحاماً كاملاً. استبسل العرب أيّما استبسال، وقد ساعدهم يوليان وأبناء عطرشةَ، وأبلوا البلاء الحسَنَ، وأظهروا كلَّ جرأةٍ وإخلاص. وقد قُتل في هذا اليوم خَلْقٌ كثير من الفريقَين.

بقيتِ الحالُ هكذا أيّاماً أخرى، إلاّ أنه في اليوم السابعِ تخاذل وانهارَ جناحا الجيش الإسباني، وركّز

طارق وقادته هجماتهم العاصفة عليهما، فانكشف قلب الجيش الذي يقوده لذريق نفسه.

وكان العربُ قد احتفظوا بعدّةِ كتائب لم تشترك بالقتالِ، فما إن رأت ما أصابَ الإسبان حتى عبَرت النهرَ بسرعة، واتَّجهت إلى الوسط.

عندئذ هجم طارق يساندُه بعضُ شجعانِ العرب وقادتِهم، وراح يشقُّ صفوفَ الأعداءِ حتّى وصل إلى أمامِ لذريق، وسيفه يقطر دماً.

- ها أنتَ، يا ابن الخبيثة.

- مَنْ أنتَ، يا رجل؟

- أنا طارق بنُ زياد. جئت لنِزالِك.

- أين أنتم، يا رجال، أُلْقوا القبض على هذا الوقح.

تقدّم بعضُ الجنود من طارق، ولكنَّ رفاقه ضربوا طوقاً حوْلَهم، وأعمَلُوا السَّيفَ فيهم حتّى أفنوهم عن آخرهم.

ارتجف لذريقُ في داخِله، وامتشق حسامه ووجّه

ضربة إلى طارق أصابت منه الصَّدرَ فأدْمَتْه.

غضب طارق وصاح:

ـ خُذْها...

أصابت الضربة كتف لذريقَ فقطعتها. هوى الرجلُ عن صَهْوَةِ جواده، وركض صوب النهر، وارتمى في لجَّته.

عندما رأى القوطُ مقتل لذريق قائدهم صاحوا صيحات الخوف والهلع، وولّوا الأدبار. وتتبَّع جنود العرب فلولَ الأعداء الهاربةِ، وأعملوا السَّيفَ في رقاب مَنْ ظفروا به.

انتصر العرب وفازوا بغنائمَ لا تحصى، وأصابوا عدداً كبيراً من الجياد.

.... وأصبحت الأندلسُ عربيَّة.

* * *

أحدث انتصار طارق بن زياد، في الأندلس، دوّياً هائلاً في المغرب والمشرق، فأقْبل النّاسُ من كلّ صوب للانضمام إليه والالتحاق بالجيش الغانم، فلم يردّ واحداً منهم. وما هي إلّا أيّام حتّى أصبحَتْ

إسبانيا بأكملها بين يدَيه. ولم يعدْ طارقٌ بحاجة إلى جيش لجب للقضاء على المقاومة الضئيلة الَّتي كان يلقاها في بعضِ المدن، التي كانت تتساقطُ بين يدَيه كأوراقِ الخريف دون عناءٍ يذكر.

وتابع طارق مسيرة الفتح المظَّفر، فراح يستولي على الممتلكات ويفرض الجزية. ويصالح ويعادي. وعندئذ رأى أَنْ يوفد الرُّسل إلى موسى يُطلعُه على ما أحرَزَهُ من نصر. ولما بلغَتْهُ أَخْبارُ انتصاراتِه نَدِم على توليةِ طارقَ، قيادة الجيش، وتمنَّى لو أضاف هذا المجد إلى أَمجاده السَّابقة.

ـ يا حامد.

ـ مولاي.

ـ في أيّ اتجاه يسير طارق؟

ـ إنَّه يتقدَّم باتِّجاه طليطلة.

ـ ماذا تقول؟

ـ ما سمعته منه.

ـ أدْرِكْهُ بأسرِع ما يمكن من الوقت، وقلْ له ليعسكر حيث تُدْرِكُهُ، ولينتظرْ قدومنا. فإنَّ ما بلغه الجيش العربي سيعرقل مسيرته. وقد يلَمْلِم القوطُ قوّاتهم ويغيرون عليه، فيعرِّضَ حياةَ الكثيرين للخطر. يستحيل عليه أنْ يتوغَّل في البلاد. وهل يجهل المخاطر الّتي يتعرّض لها؟

وفي هذه الأثناء كان طارق قد استشار رؤساء الجيش،وعمد إلى قسمته ثلاثة أقسام. الأوَّل بقيادة مغيث بن الحارث،ووجَّهه إلى قرطبة، والثَّاني بثّه في جميع أنحاء الجنوب لفتح القرى العاصية،وتأديب من تسوّل له نفسه العصيان، وقاد هو نفسه الكتيبة الثَّالثة إلى طليطلة.

وصل مغيثٌ بفرسانه إلى قرطبة فإذا بهم أمام مدينةٍ حصينةٍ، فأدرَكَ أنَّ فتحَها يتطلَّب كثيراً من الجهد والوقت.

ضرب مخيّماتِ جنده على بعد فرسَخَيْنِ منها وراح يضيِّق الخناقَ عليها، ويمنعُ أهلَها من الخروج

وهو يجهل أَنَّها خالية إلّا من أميرها وأربعمئة محارب يحرسُون الأَسوار.

وفي اليوم الثَّاني أتى الحرّاسُ إلى مغيث برجل فسأله:

ـ مَنْ أَنْت؟

ـ أنا راعٍ.

ـ من أيّ بلد أنت؟

ـ من قرطبة.

ـ لماذا أنت خارجَ الأَسوار؟

ـ كنت أَرعى المواشي عندَما وصَلْتُم وعسكَرْتُم في هذا المكان.

ـ ولماذا لم تأتِ إلَيْنا؟

ـ خفتُ بطشَكم.

ـ إعلم، يا هذا أَنَّ شِيَم[٣٤] العرب تقف حائلاً بينهم وبين القتل دون سبب.

ـ أصحيح ما تقولون؟

ـ نعم.

ـ والأغنام؟!

ـ أَلَيْست لك؟

ـ بلى.

ـ احتفظ بها، أليْسَ عندَكَ حيلةٌ لدخول البلد؟

فكَّر الرّاعي قليلاً ثمّ أجاب:

ـ بلى.

ـ وما هي؟

ـ إنِّي أعرف ثغرةً سرِّيَّة تحتَ أحدِ الأسوار.

ـ أتقودنا إليها؟

ـ نعم...

ـ إذاً ابقَ معنا حتّى يعمَّ الظّلام.

هطلت سيولٌ غزيرةٌ ذلك المساء، أَعانتِ

العــرب على الاقــتراب من السّــور دون أَنْ يسمــعَ الحرَّاس وقع حوافر الخيــل. ودخل بعض الجنـود من الثّغرة، فقتلوا مَنْ قتلوا،وفتحـوا أَحـدَ أَبـواب أَسْــوار المدينة. فدخل مغيثٌ ورجـالُه ودارتْ معـركة طـاحنة على أَسوارِ المدينة وفي أزقَّتها، إِسْتسْلم في إثرها كلُّ مَنْ بقي من جنود في المدينة وهرب أميرُها، فـلاحَقَهُ مغيثٌ حتّى قبض عليه،واقتادَه أسيراً.

وبينـما طارق يخـترق هضـاب الأنـدلس وصـل رسولُ موسى. فلم يتـوقَّف خوفـاً من أَنْ يخفَّ حماسَ جنـده،وأَنْ يفيـدَ الأعـداءُ مِنْ هَـذه الفـترة،فيجمعـون فلُولَهم،ويستعيدون قِوَاهم،ويضايقون زحفَ جيشه.

أَكْمـلَ زحفَهُ حتّى وصـل إلى طليطلة،فـإذا بهـا مدينةٌ خالية إلّا من النّساء والعجّـز،فدخلهـا وغنمَ منها غنائم لا حصرَ لها، وعدداً هائلاً من التّحفِ والنّفائس وكمِّيَّة عظمى مِنَ الذّهب والفضة والحجارة الكريمة.

قـرَّر طارق أَنْ يقضي فصـلَ الشتاءِ في طليـطلة لاسِيَّما وأَنّ الحملة الّتي قادَهـا والحـروبَ التي خـاضهـا

أَنْهَكَتْ قواهُ وقِوَى جيشه.

ولم يمضِ وقت طويل حتَّى لاحظت أعينُ العرب حركة تجمّع للقوط وراءَ الجبال الّتي تلي طليطلة، وبدا أَنَّ القومَ استفاقوا من هَوْلِ الصّدمة فبدأوا ينظِّمون صفوفهم.

جمع طارق قادته، وراح يتشاوَرُ وإيَّاهُم في ما يتوجّبُ عَملُه لدرءِ الأَخطار المحيطة بهم. لقد توغَّلوا في قلب البلاد، وتوَّزعوا في الأَماكن المحتلَّةِ جالياتٍ للحفاظ على الفتح، فهل يستطيعون المقاومة وردّ القوط؟

لم يرَ بدّاً من الكتابة إلى موسى مستنجداً: «استولى الهلعُ على نفوس الإسبان، فولّوا من أمامنا هاربين، ففتحْنَا مدنَهم وقراهم،واستوْلَيْنا عَلى بيوتهم ونفائِسهم، مما دفعنا إلى عَدَمِ التوقّف. إستكْمَلْنا الفتحَ، فشاءَ الله لنا، أَنْ ندخل كورةَ(٣٥) ريةَ ومالقة أكبرَ مدائنهم، وكورة البيرة وغرناطة وأريولة. هذا وقد سَيْطرْنا على عاصمة البلادِ دونَ مقاومةٍ وتابَعْنا

فلولَ الهاربين من القوطِ والأهلين إلى مدائن مـا وراء الجبل، وأجبرناهم على الطّاعة والاستسـلام، بلغنا في تقدّمنا مدينة المائدة، وتمكّنّا من بلوغ جليقية في الشمال الغربي من الأندلس. وقد تركنا في كلّ مدينة فتحنـاها جاليةً لحـمايتها، وعُـدْنا مـع قادتِنـا وفِرَقٍ من جنـودِنا البواسل إلى العاصمة.

إنّنا تلقّينا أوامركم في مكان لمْ يكن باستطاعتِنـا التوقّف عندَه خوفاً مِنْ أنْ تتجمّع فلولُ الأعداءِ علينـا أو تتحصّن في المـدائنِ التي دخلت في طـاعتنـا، وقـد أدركنا، بعد أن ركدت فينا سكرةُ النّصر، الأخطار الّتي تحيق بنا. إنَّ الأمم قد تداعت علينا من كـل ناحيـة، فالغوث».

ولما عاد الـرّسول إلى طـارق حمل إلَيْـه جـواب مـوسى وفيه يقـول: «إنَّ خبرتَنـا العسكريّـة ونـظرتنـا المستقبليّـة إلى الأمور دفعتنـا أنْ نرسـل لكم الـرّسـلَ ونأمُرُكم أنْ تتوقّفوا عن الزحف وإنْ كان فيه ظفرٌ مبين للأمَّة العربيَّة، فتجاوزتُم ما أمرناكم، وضربتم عرضَ الحائط بما أوْصَيْناكم به، واسترسلتم في

عِصيانكم،وتوغَّلْتُم في بلاد مجهولةٍ مأخوذين بخمرة الفوز وعرّضتُم حياة العربِ للأخطار. نحن في طريقنا إليكم، فحافظوا على ما أفاءَ الله على الأمّة من رِفْدِهِ،وليكن مَنْ اؤتمنتم عليهم أمانة في أعناقكم. »

* * *

استشعــر طــارق غضبَ مــوسى، وأدرك بعــدَ فواتِ الأوانِ أنّ مخالفةَ أوامرِهِ عرَّضته لسخطه.

أخذ القائد الشابُ يحصِّن المدنَ وينظّم الفتــوحَ ويرسل الرسلَ إلى رؤساء الجاليات يوصيهم بما أوصى به موسى.

٦ - موسى يشارك طارق في فتح الأندلس

ولّى الشّتاءُ بأمطارِهِ وعواصفه، وأقبل الرّبيع بلطفِ نسائمه. وكان موسى قد استكمل اختيار قادتِه وجنده،وإذا به على رأسِ جيشٍ كثيفٍ مؤلَّفٍ من ثمانيةَ عشرَ ألفِ مقاتل، مشى به إلى الأَندلسِ بعد أن استخلف ابنَهُ الأكبرَ عبدالله على طنجةَ وسلَّمه زمامَ الأُمور فيها. وكتب إلى ابنه مروانَ يستعجلهُ إلى نجدة طارق.

وصلتِ الجيوشُ العربيَّةُ إلى الأندلسِ في شهر حزيران من عام ٧١٢م. ونزلت في مكان يعرف حتى اليوم باسم مرسى موسى، وحطّت فيه عدّة أيَّام لتَنْظيم الصفوفِ قبلَ الإقدام على القتال.

وفي مرسى، جمع موسى أهلَ الرأي،وتشَاوروا

في الخطةِ الواجبِ اتّباعها. فقال أحَدُ القادة: أرى أنْ نَسْلكَ الطّريقَ الّتي سلكها طارق، فنقوّي الجاليـاتِ ونرهب مَنْ تسوّل له النّفس من القُوْط بالاعتداءِ عليها.

أجابَه موسى:

- لا أرى رأيَـكَ، إنْ جئت إلى هـذه البـلاد فلكي أدعمَ الفتح وأرسّخَه وأرسيه على أسس مكينة لا تزعزعها هجمات القوط. فأرى أنْ نسلكَ طريقاً آخر، ونفتحَ مدائن غير التي فتحَها طارق. أليس مِنَ الأفضل أنْ نتبع طريقاً أخرى.

- يا موسى، ألم تأتِ لتغيث طارق؟

- بلى، ولكن أيْن نحنُ مِنه الآنَ، هو في أواسط الأندلس، فإنْ سلكْنا الطريقَ التي سلكها،أو مشينا للفتح عن طريق آخر، ألا تكونُ النتيجة واحدة؟ ماذا يضيرنا لو فتحنا ما لم يُفْتَحْ،واستوْلينا في طريقنا على ما لم يستولِ عليه؟

قال أحدُ قادةِ يوليان الّذي كان يحضر المجمع:

ـ نحنُ نـدلُّـك عـلى طـريق هي أشرف من طريقه، وعلى مدائن أعظم خطراً من مدائنه، لم تُفْتَحْ بعد، فيفتحها الله على يديك.

ـ أرى أَنَّ استرسال طـارق في الفتوح، يعـرّض خـطوطَ مواصـلاتِه إلى أخـطارٍ داهمـةٍ علينـا أن نجـدَ خطوطاً أُخـرى آمنة. فـإنَّ مدائن الشَّـرقِ والغرب لا تـزالُ حرَّة، تستطيع أَنْ تتنـادى وتتألّبَ علينـا، وتهـدِّدَ مسيـرتَنا، فمن الأفضل أن نقتحمهـا، ونسيـطر عليهـا لنأْمَنَ شرّها.

وافق المجتمعـون عـلى رأي مـوسى، ورأَوا أَنْ يسيروا إلى أشبيلية، ويغـزوا ما تبقّى من شرقي وغـربي البـلاد. وكانت قـرمونـة، أحصنَ مدنِ هـذه البلاد، ففتحهـا العـربُ عنـوة، وسـاروا منهـا متقـدّمـين إلى إشبيلية. وكانت هـذه المدينـة من أَفخم مدنِ إسبـانيا وأغناها آثاراً وأشدّها غنىً.

وصلتِ الجيوشُ العربيّة إلَيها، وضربتِ الحصـارَ عليهـا فعَصَتْ وامتنعت. رأى القـائـد العـامُّ، أنَّـه

يتوجّب التغلّب عليها كي لا تتعرَّض الكتائب العربيّة للعزلِ بعضها عن البعض الآخر. وخوفاً من أنْ تُهاجَمَ متفرِّقة،وتصبح أجنحتُها مكشوفةً. فتوقّف عندها وما زال بها حتّى اقتَحَمها وسيطرَ عليها بعد قتال عنيفٍ،وأَباحها للجندِ لمدة ثلاثة أيام.

اتّجه من ثَمَّ شمالاً قاصداً طليطلةَ، وبلغ في مسيرتِه مدينةً ماردة،وهي مملكة يحكمها أمراءُ الأَندلس وتمتازُ بقصورها الواسعة وكنائِسِها الفخمة وكثرة مصانعها،فوقف العربُ عندها ولم يتمكَّنُوا منها حرباً. فضربوا الحصارَ حوْلها. وكان محاربو المدينة يخرجون من الأسوار إلى ظاهرِ المدينة، ويغيرون على العرب، فيقتُلُون مَنْ يقتلون، ثمَّ يرتدُّون إلى داخلِ الأَسوار.

طالت المدّةُ والحالُ لم تتبدّلْ،فاستنبط موسى دبّابة كُبرى احتمى بها مغاويرُ من الجيش،واقتربوا من أحدِ أَبراج السور لفتح ثغرةٍ تسهِّل أمامَهم سبلَ دخولِ المدينة. وتقدّمت فرقة ترتدي الدّروع والخوذ مُسلّحة تسليحاً كاملاً لحماية المغاوير.

دامت أعمال الحفريات أَسابيع عديدة، وَوُفِّقتِ الفرقةُ في النهاية في ثقب السُّور وانتزاع حجارته، غير أنّها وجدتْ وراءَه مادَّة صُلبَةً عَجَزَت عنها معاولُهم وتراجعت أدواتُهم عاجزة عن تفكيكها، فذهبت أتعابهم أَدراج الرياح.

لم ييأس موسى من أَمره، ورفض أَنْ يترك المدينة بِيَدِ الأعداء، فبقي على حصاره لها، حتىّ إنّ القوطَ لم يعودوا يجرُؤُونَ على فتح أَبواب أسوارِها للانقضاض على العرب كما كانوا يفعلون. وشدّدَ العرب الحصارَ عليها ومنعُوا الخروجَ مِنْها. وهنا تجلّى أبرزُ ما تمتَّع به موسى من حسٍّ عسكريٍّ سليمٍ ومهارة حربيَّة بلغت حدَّ الإعجاز وروح نضاليّة ومثابرة حتىّ بلوغِ الأَرَب خاصَّة عند شيخ بلغَ الخامسةَ والسبعينَ من عمره.

ولما تأكَّدت مارِدَةُ، أنَّ العرب باقون، وأن لا سبيل للنجاة إلاّ في الاستسلام، فتحَتْ أَبوابَ أَسوارها وتركت أبراجها ثيباً(٣٦)، وخرجت حاميتُها إلى موسى طالبةً الأمانَ والصلح.

أجاب موسى:

ـ منحتُكم الأَمـان وعقـدْتُ معَكم الصلحَ، بشرط أَن تكـون أَمـوال مَنْ هـرب مِنْ أَهـل المـدينـةِ وكنـوزِهِ وممتلكاتِـهِ غنيمـةً للعـربِ وديَّـة[37] لمن قُتِـلَ منهم، دون أَن يكون لأحد الحقُّ في المطالبة بها.

وإذا سوّلتْ لكم النّفسُ بالاعتـداءِ على الجـالية الّتي سأتركُهـا للمحافـظةِ على المـدينةِ، بعـدَ أَن ابتعدَ عنها، فإنّي سأعودُ إليْها عندئذٍ، وأستولي عـلى كلِّ مـا فيها وأُدمّرُها تدميراً كاملاً، وأدعها قاعاً صفصفـاً ينعقُ البومُ وحده في أرجائها فلا تُلجئوني إلى ما أكره.

قبل الوفد المفاوضُ بهذه الشروط،وحلّ السَّـلام وعُقِدَ الصُّلح. فما كـاد موسى يبتعـدُ عنها، حتىّ عـادَ الفارّون منها،وشنّـوا غارةً عـلى الجاليـة العربيّـة فيها، وقتلوا جميع أفرادِها. بلغ الخبرُ مـوسى وهوَ في طـريقِهِ إلى طليـطلة: فتـوقّف عن المسيرِ، وأرسـل إليهـا حملةً بقيادة ابنه عبد العزيز.

وصلتِ الحملةُ وهاجمتِ المدينـةَ ولم يطلِ الأَمـر

حتىّ سقطتْ بين يديْه فأباحَها لجندِه، فغنموا الغنائمَ الثمينة وضبطوا الممتلكاتِ، واستولوا على أَموالِ كلٍّ مَنْ فيها، وتركوا فيها جاليةً قويَّة، تتمكّنُ مِنَ المقاومةِ والحِفاظِ عليها.

أرسل موسى يستدعي إلَيه طارقاً،وهو في منتصفَ الطريق بين ماردة وطليطلة. التقى الرجلان في مكان يقال لَهُ طلبيرة.

وكان موسى عاقدَ الحاجبين،عابس الوجه، وشرر الغضب يتطايرُ من عينيه السوداوين،وفي يمينه سوْط يعبث به.

ـ لماذا عصيتَ أَوامري، يا طارق، وتجاوزتَ قرطبة؟ ألم أَنْهَك عن ذلك؟

ـ بلى، يا مولاي، ولكنّ الفتحَ أَغراني، ففعلت.

وضع موسى السوط على رأس طارق وقال:

ـ واللّه ، لولا شجاعتك وإخلاصك وفتوحك لكنتُ أَدَّبْتَك بهَذا السّوط. أمامَ قادتِك ولكنّي

سأمسك يدي عن هذا، وأبقي سوطي للأعداء.

ـ واللّه، يا موسى، ما قصدْتُ عصيانَك.

ـ بل فعلتَ، ولا يفيدُ الإنكارَ. فلو تجمَّعَتْ عليكَ الأُمَمُ، وتمكَّنتْ مِنْكَ، وأَفنتْ جيوشَك، أَكان بقيَ الفتح فتحاً.

ـ أَدركتُ خطأي، وندِمْت على فعلتي.

ـ الإقرارُ بالخطأ فضيلة. أَلَمْ يبلغْك خبرُ عقبة بن نافع؟

ـ اعذرني، إنّما أنا قائدٌ من قادتِك. فما أَصَبْتُ من نجاح، وفتحْتُ من بلدانٍ إنَّما هو منسوبٌ إليك.

ـ أَيْن الَأموال والنَّفائِسُ التي استوليت عليها؟

ـ جميعُها موفورة.

ـ آتني بها إذاً.

ـ أُسلّمك إياها، متى وصلنا إلى طليطلة.

***

بعد مدّة وجيزة، دخلت الجيوش العربيّة المظفّرة طليطلة بقيادة موسى، وما إنْ استقرّ بهِ المقام حتىّ أَمرَ بإلقاء القبض على طارق، ورماه في السِّجن ولكنّ إقامته فيه لم تطلْ. قضي على القوط في معركة «السّواقي» قضاء نهائياً،فقرّر موسى أَنْ يقضي الشتاء في طليطلة، وينظِّم ما أفاءَ اللّه عليه من بلاد.

أوفَدَ إلى الوليد سَفِيَرينِ يطلعانه على ما تمَّ أَحدهما مغيث الرومي الّذي على يده فتحت قرطبة والثاني علي بن رباح وهو رجلٌ صالح شارك في جميع الحملات المغربيّة والأندلسيّة. وصلا إلى دمشق،وبعد أَنْ أَلقيا التحيّة على الخليفة قال علي:

- تركَ موسى في الأندلس،وقد فتحَ ما لم يفتحْهُ أَحدٌ. ودفع إليه كتاب موسى، فقرأَهُ ... وبدَتْ على قسماتِ وجههِ علائمُ الإعجاب، وما إنْ أَتى على آخرهِ حتّى خرّ على ركبتيه ساجِداً،وقال: «ربّي، لقد أَسبغْتَ علينا نعمَك وأَتيتَنا هذا النصرَ المبين، فنحمَدك، ونشكرُك راجين أن تنصرَنا دوماً على أعدائِنا، وتَشدّ من سواعد قادتنا وجنودنا، وتجعلهُم

دائماً متّحدين متحابينّ، لا يداخلُ قلوبَهم سوسُ التحاسُدِ والبغضاء، ولا يفكّرون إلاّ بمجد أُمّتهم. لا تخذلْنا في ما نقوم به من أعمال، وجزْ عن أخطائنا، فأنت على كلّ شيء قدير».

وما إنْ انتهى الوليدُ من رفعه الشكر للّه حتىّ دخل صفيُّه عكرمةُ، وقد بلغَتْهُ أخبارُ انتصاراتِ موسى، فأقضت مضجَعه. قرّر الرجل أَنْ يحملَ علَيْه ويُغري الوليدَ به. كان الحسدُ يغلي في عروقِه ويمنع الكرى عن عينيْه.

ـ ما بالك، يا عكرمة، تبدو كأنّك ميت. هل أَصابك سوء أو نزلت بك نازلة؟ خذْ واقرأ.

ـ ما هذا، يا مولاي؟

ـ هذا كتاب موسى إلينا.

ـ وما فيه يا مولاي؟

ـ فيه أَنّهُ قضى على القوط قضاءً مبرماً، ولن

تقوم لهم بعدَ الآن قائمة.

- وما فيه عن طارق، يا مولاي!

- طارق؟

- نعم، أَلَيْس هــو الّــذي اجتــاح الأنــدلسَ وفتحَها حتّى ما وراء طليطلة.

- بلى.

- وهــل يخبــرُكَ مــوسى في هــذا الكتــاب بكــلّ شيء.

- اسألْ علياً، يا مولاي، أين طارق؟

- وما بال طارق؟

- خـاطَرَ هـذا القائد، يا مولاي، بنفسـه وقـاد العـربَ بـإقْـدَامٍ وجـرأة، إلى النّصر، وسيـطر عـلى الأندلس.

- يا علي،أين طارق؟

- يا مولاي عَصى طارقٌ أَوامرَ قائده الذي أوصاه

بأنْ لا يتغلغلَ في الَأندلس، كي لا تتجمّعَ عليه جيوشُ الَأعداء، فتتعرّض حياةُ العرب للخطر، والحملة للفشل.

ـ سألت أيْن طارق؟

ـ في السّجن.

ـ أين؟

ـ في طليطلة.

ـ قُلْ له، لدى عودتِك، ليطلق طارق، فما هكذا يكافأُ الَأبطال. وسنكتب له في ذلك.

ـ أَمْر مولاي.

لمّا انصرف الرسولان، التفتَ عكرمةُ إلى الوليد وقال:

ـ لَنْ يفوتَك شرٌّ موسى، يا مولاي، وإنْ كلَّمتك بهذا الشأن، فليس كرهاً به أو حسداً منه، إنَّما غيرة منّي على الشرعيّة والخلافة.

ـ قلْ ما عندك.

ـ إنّ موسى ، قائدك هذا، أصبح لديه من الجيوش ما ليس لجميع أقاليم الخلافة مجتمعةً يقودُها إلى حيثُ يشاء.

هو يقلِّد الخلفاء في كل الشؤون، فإنّه يستخلف أولاده على أغنى أقاليم المغرب وإسبانيا وآخرهم عبدالله، حاكم إقليم طنجه ومروان قائد الجيوش في الأندلس. عدا أنّهُ... قد طغى واستبدَّ وسجن طارق بن زياد بعد أَنْ أنّبَهُ وأهانه،ووضع السّوط على رأسه.

ـ أَتعني أَنّهُ سيستقلُّ بالمغرب والأندلس.

ـ ولماذا لا يفعل؟ مَنْ يستطيع أَنْ يمنعَه؟

ـ إنَّ رَجُلَكَ هذا شديدُ الطموح... يتطلَّعُ إلى أبعد من الأندلس.

وأَخذ عكرمة، قطعة ذهبيَّة ودفعها إلى الوليد:

ـ ما هذه؟

ـ هذه قطعة ذهبيّة.

ـ ولماذا ترفعُها إلينا.

ـ قـد جلبها لنا أحدُ العـائـدين من الأنـدلس، ليتـأملّها مـولاي. إنّها الدَّليـل الواضـح عـلى نـوايـاه السيِّئة، وعلى رغبتِهِ في الاستقلال عن الخلافة.

ـ لقد فوَّضناه في ذلك.

ـ وهل فوّضتَه، يا مولاي، في أن يضع اسمَهُ على أحدِ وجهي هذه القطعة؟ لقد سبق أنْ فعل هذا الأمرَ عندما سكَّ عملةَ المغرب، والعرف المتّبع أَنْ لا تحمل العملةُ سوى رسمِ الخليفة.

ـ أيجب أن نمنعه عن ذلك؟

ـ نعم وأن تعاقبَه أيضاً.

ـ سنكتبُ له ونرى ما يكون، يا عكرمة.

٧ ـ غضب الخليفة سليمان على موسى

عصفت في صدر موسى ذلـك الشيخ الشجـاع رغبـة في أنْ يقود جيـوشه عـبر جبال الـبرانس ويجتاح أوروبا كلها.

سار موسى وطارق، ففتحا أقاليم أرغونه وقشتالة وقطالونيا واستوليا على سرقسطة وبرشلونة.

ورغب موسى أَن يكمل مسيرته المظفَّرة، ويتسلَّقَ البرانس، فأخذ القادة والجند يتهامسون:

ـ إلى أَين يسيرُون بنا؟ حسبنا ما فتحنا. أليسَ لطموحِهِ من حدود؟ ما باله يأتي أمـراً نهى عنه طـارقا وسجنَه من أَجله؟

وذات يوم تقدّم حنشُ النعماني إلى خيمَةِ مـوسى وقال:

ـ أيأذنُ لي موسى بالكلام؟

ـ قل ما تشاء.

أَتتـذكَّـر يـا مـوسى، مـا قلتَـهُ ، يـومَ دخلتَ أفريقيا؟ .

ـ نعم، لقد قلت: «ما بال عقبة بن نافع، قـد غرّر بنفسه(٣٨) وبمن معه، حين توغّل في بلاد العدوّ، أما كان معه رجلٌ حكيم يرشدُه؟»أَتَسْمحُ لي أنْ أكونَ رشيدَك اليوم؟ أَيْنَ تـذهب بنا: أتـريـد أَنْ تفقـد مـا ربحْتَه بسَعْيك وراءَ ما يستحيل عليك؟ يرغب النّاسُ في السّـلام والدّعـة، ولم يعدْ أحـدٌ يرغبُ في الفتـوح والغنائم،وقد أَتانا اللّه عزّ وجلّ ، أكـثر مِمّا نستـطيع. وقفـز حنشُ النّعماني عن ظهـر جواده،وأَمسـك بعِنـان جواد موسى. . .

إبتسم القائد الفاتح، وأَجاب:

ـ قُدْني إلى حيثُ تشاء، يا حنش، أَفادنـا اللّه بنُصْحِك.

فلوى عِنانَ جواده باتّجاه الَأنـدلسَ،فمشى موسى إليْها، وهو يقول:

ـ واللّه لـو مشوا معي لقـدتَهُم إلى فتح رومـا. وعـاد الجيش إلى الأنـدلس،وفتـح جليقيةَ وهكـذا طـاعت الَأعاجِمُ فـلاذوا بـالسلم وبـذلـوا الجـزيـة. وسكنت العرب المفاوز، وكان العرب والبربر كلّما مـرَّ قـومٌ منهم بمـوضـعٍ واستَحْسَنـوْهُ حـطّوا بـه ونـزِلـوا قاطنين.

وفيما موسى في قلعة «لك» وصل رسولُ الـوليد يستعجِلُه بالعودة.

اختار موسى إشبيلية، عاصمة للولاية الجديدة، واستخلف عليها ابنه عبد العزيز،وترك بجـانبه حبيب بن أَبي عبيدةَ أحدَ قادته، وهو صغير عقبه بنِ نافـع، كما ترك معه أعيان العـرب وقسماً من الجيش، وأَبْحـر من إشبيليـة إلى أفـريقيـة حيثُ استخلف عليهـا ابنَـهُ عبـدالله،وسار منهـا إلى مصرَ ففلسطينَ فـدمشقَ،ومعـه أولادُهُ عبدُ الأَعلى وعبدُ الملك وطارق ومغيث ومئة

رجـل من وجوهِ الـبربر،وعـدَدٌ من أمراءِ القوط، وحمل معه نفائسَ مِنْ كـلِّ بَلَد: «من بَزِّهـا ودوابها ورقيقهـا وطرائفها وما لا يحصى من كنوزِها وثرواتها، فأَقبل يجرّ الدُّنيا وراءَه جـرّاً، ما لَمْ يسمـعْ بمثلِهِ ولا بمثل مـا قَدمَ به».

وفي هـذه الأثناء، كـان الوليـدُ يعاني سكـراتِ الموت، فأَرسل ولي عهده، أُخوه سليمانَ، رسـلاً إلى مـوسى، يـأمـرونَـه بـأَنْ لا يستعجـل كي يحـظى هـوَ بالغنائم والتحف.

ولكنّ موسى أَجاب رسل سليمانَ قائلاً:

إنْ فعلْتُ ذلك أكون قـد خُنْتُ وغَدَرْتُ، ومـا وفيت. والله لا أَتـأخَّـر ولا أَتعجّـلُ، ولكنّي أَظـلُّ في مسـيري، فإنْ وافيتـه حيّاً لم أتخلّفْ عنـه، وإن سبقَني إليه قضاءُ الله، فأَمري وأَمره إلى الله.

وشـاء الله أَنْ يصِـل مـوسى دمشقَ،والـوليـدُ لا يـزالُ على قيـدِ الحياةِ، وكـان يـوم جمعـة والخليفـة في الجـامع مـع كبراءِ القـوم ووجـوه القبـائـل والـوزراء

والقادة. مشى موسى إليه ووراءه النبلاء والأعيانُ،وكلٌّ يـرتـدي حلّتـه المنسـوجـة بخيـوط الـذَهب والمـزيّنـة بالحجارة الكريمة، وقد وضعوا تيجانهم على رؤوسهم.

وما إنْ قيل للوليد أَنَّ موسى قد أَقبل إِلَيـه حتىّ هبَّ واقفاً بالـرغم من مرضـه،وخرج مـع مَنْ يرافقـه من أَعيـانٍ إلى باب المسجد لاستقباله،بينما عـلا صياحُ القوْم يشقُّ عَنـانَ السّماء: «موسى، موسى».

وفي هذا الوقت بالذّات انسـلَّ عكرمـة من بين الجموعِ وتبعهُ سليمانُ ولي العهد الّذي كان مـزمعاً أَن يتقلّد تبعاتِ الخلافة.

- أرأيْتَ يا سليمان،كيف أنَّ موسى لم يُطِعْـكَ في مـا طلبت منه، وأَقبـلَ يضعُ عنـدَ قدمي الـوليد كـلَّ نفائس وكنوز الدّنيا، استرضاءً له؟

لا يجعلُك هـذا تَشكُّ بنـزاهتِه وإخـلاصِهِ. أَلَا تعتقـد أَنّـه يـدبِّـر أَمـر استقـلالِـهِ ببـلادَي المغــرب والأندلس؟ ألَا تشيرُ الدلائلُ إلى ذلك، وقد عمـد إلى استخلاف أولادِه على إشبيليةَ وطنجة والقـيروان؟ أَهوَ

خليفة أَم ملكٌ يوزِّع ممتلكاتهُ على أبنائِه وأعوانه.

ـ يداخلني الشّكُّ، يا عكرمة، في هذا الشيخ الطموح.

ـ ثمّ، يا مولاي، أيَّة قوّة تستطيع أَنْ تنتزع منه تلك الأقاليم النائية... بعد أَنْ تمَّت له السيطرة الكاملة عليها.

ـ وما باستطاعتي أَنْ أفعل الآن؟

وقرّر سليمانُ أنْ يجتمع بمغيث الرومي الّذي كان الخليفة عبدُ الملك قد عطف علَيْه وأولاهُ ثقتَهُ وربَّاه مع أولادِهِ وخاصَّةً الوليد وسليمان.

ولم يطلِ الأمر حتّى نفذ القدر بالوليد وأصبح سليمان خليفة، فأرسَلَ في طلبِ موسى الشيخ العجوز واتّهمه بعدّة إساءات أَقلّها أَنَّه وزّع الغنائمَ توزيعاً غير عادل على القادة والجند، وأَنّه استغلّ نفوذه في سبيل الإثراءِ غير المشروع، وبسعيه الدّائبِ من أجل إضعافِ الخلافة والاستقلال بالمغرب، والأندلس. وأمره أَنْ يضعَ تحت تصرُّف الخلافة جميع الغنائم

والنفائس والكنوز التي احتفظَ بها لنفسِهِ ولأولاده.

دافع موسى عن نفسِهِ دفاعاً يائساً،وطلب من سليمانَ أَنْ يسمحَ له بالعودَةِ إلى المغرب والأَندلس قبلَ أَنْ تفسد الأُمور هناك،إلاّ أَنّه لم يسمحْ له بذلك.

وعزّ على يزيد بن المهلب أَن يوضع هذا المجاهد الكبير في الظّل،وأَنْ يُعْزَلَ عن شؤونِ الدَّولة الكبرى، وأَثّر في نفسه ما لقيَه من الخلافة الأمويَّة من جحودٍ ومهانةٍ، فقصدَهُ ذات ليلةٍ، وراح يسامِرُه ويضاحكهُ ويسري عَنْهُ[٣٩]، وسأَلَه.

- يا أبا عبد الرّحمن، كم عدد أهل بيتك ومواليك؟

أجاب موسى بِخُيَلاء[٤٠] وزهوٍ:

- لا أَدري لهم عدداً.

- أَيكون عشرة الآف؟

- عشرة، فعشرة، فعشرة... إلى منقطع النفس.

ـ يا موسى، أتكونُ بهذه القوّة، وحواليك ما لا يحصى من الموالي والمحبّينَ، وتلقي بنفسك في التهْلكَة؟

ـ ماذا تريدني أنْ أفعل؟

ـكيف أتيتَ ورميتَ نفسَك بين أيدي سليمانَ؟ ألم يكن باستطاعتك،وأنت مالك المغرب والأندلس، أنْ تبقى فيها مكرّما.

ـ والله، يا يزيد، إنّ البلادَ الّتي فتحتُها، والرجال الّذين استملكتهم، لا يعرفون سواي، وما حصلْتُ عليه من ذخائرَ وكنوزٍ إنّما هو في سبيلِ مجدِ هذه الأمّة الّتي أنا منها، ولو علمت حقّ العلم، أنَّ الوليد وسليمانَ لن يرحماني وستنزِلُ بي المكارِه على أيديْهما لما تردّدت في المجيء إليهما. والله لو أردْتُ الامتناع،لما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكنّي لم أرَ الخروج عن الطاعة،ولا الانفصالَ عن الجماعةِ وقد آثرت الله على الجميع.

ـ والآن ما الّذي تنوي أنْ تفعل؟

- إنِّي لن أَخــرجَ عن إرادةِ مـولانـــا الخليفـة، وسأطيعُه في كلّ ما يأمرني به.

- كَـلأكَ الله بعينِ الـرّضى،هكذا تنهض الأمَمُ، على هِمَمِ رجالٍ أَمثالك، لا يجذبهم غنىً، ولا يبطرُهـم مجد، ولا يستهوِيهم مركز.

ولم يـطلِ الأمـر بعـد ذلـك حتّى تـوارى وجـه فاتح، من أشدّ وجوه القادةِ العرب إشراقاً.

شرح المفردات

١ - امْتَشَق: أخرج السَّيف.
٢ - عجرفتهم: كبرياؤهم.
٣ - لا قِبَل له: لا يستطيع، لا يقوى.
٤ - الناجزة: المنتهية، الخالصة.
٥ - حنكة: تجربة وبَصَر بالأمور.
٦ - يجيره: يُغيثه، يُساعده.
٧ - محازبة: مناصرة، مساعدة.
٨ - الخراج: الضريبة التي تُؤخذ من أموال الناس.
٩ - وَجِل: خائف.

١٠ ـ الموبقات: المعاصي.
١١ ـ سعوا بي: وشوا بي، ونمّوا علي.
١٢ ـ الطويَّة: النيَّة.
١٣ ـ حَدَث: يافِع، في أول الشباب.
١٤ ـ الألَدّ: الأكثر عداءً ومخاصمة.
١٥ ـ متوانٍ: متقاعِس، متكاسِل.
١٦ ـ قاعد عن الفتح: لا يقوم به.
١٧ ـ أُربَتْ: زادت.
١٨ ـ عضدي: مساعدي.
١٩ ـ الجسام: العظيمة.
٢٠ ـ فَلْيُحْجم: فليمنع.
٢١ ـ أريم: أريد، أبتغي.
٢٢ ـ الهلع: الخوف الشديد.
٢٣ ـ وطرنا: حاجتنا، مأربنا.
٢٤ ـ شأفة: أصل ومَنْبع.
٢٥ ـ غَدا: أصبح.
٢٦ ـ أسْدى: قَدَّم.
٢٧ ـ صفيّه: صديقه المخلص.
٢٨ ـ أتباع: أنْصار، أزْلام.
٢٩ ـ ملاذ: ملجأ.
٣٠ ـ مدد: عون، مساعدة.
٣١ ـ أقواته: أطعمته.
٣٢ ـ يحفّ به: يحيط به.
٣٣ ـ جلُّها: معظمها.
٣٤ ـ شِيَم: مناقب، خصال حميدة
٣٥ ـ كورة: بقعة تجتمع فيها مساكن وقرى.
٣٦ ـ نُبياً: مفتوحة، متروكة.
٣٧ ـ ديَّة: ثمن الدم.
٣٨ ـ غرَّر بنفسه: أطمعها بالباطل
٣٩ ـ بسري عنه: يسلّيه، يُخفِّف أحزانه.
٤٠ ـ خُيلاء: تكبُّر وفخر.

صدر من سلسلة «من أبطال العرب»

١ ـ موسى بن نصير
٢ ـ عقبة بن نافع

دار جروس للنشر والتوزيع
ص ب ١٨٩ طرابلس ـ لبنان